

A. U. B. LIBRARY

الهنود المحمرون



5170.1
W128A
الدكتور علي عبد الواحد وافي

الرهود والحمر

٨٨

اقرأ

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

cat. 29 Dec. 53

اقراً — مارس سنة ١٩٥٠



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بصر



[اللوحة الأولى]

رئيس إحدى عشائر « السيو »
من الهنود الحمر



[اللوحة رقم ٢]

وتبسان لعشيرتين من عشائر « الأقدام السوداء » مع أفراد أسرتهما ، وهم جميعاً في ملابس الحفلات

الباب الأول
نظرة عامة في الهنود الحمر

١

اسم الهنود الحمر
أخطاء التسمية ومنشؤها

يطلق اسم الهنود الحمر ، أو الهنود ذوي البشرة الحمراء
«Indiens Peaux-Rouges» ، على السكان الأصليين لإمريكا
الشمالية . وهم قوم ليسوا هنوداً ولا يمتون بصلة ما إلى
الهنود ، وليسوا حمرّاً ولا في بشرتهم شية ما من هذا اللون .
أما أنهم ليسوا هنوداً ، فذلك أن الهنود شعوب عريقة
في الحضارة تسكن جزءاً شهيراً في الدنيا القديمة بقارة آسيا
يسمى الهندوستان أو بلاد الهند ؛ على حين أن ما يسمونهم
«الهنود الحمر» عشائر بدائية يتألف منهم السكان الأصليون
لقسم من الدنيا الجديدة يبعد بعداً كبيراً عن بلاد الهند :

وما أعظم الفرق بين أولئك وهؤلاء !

وأما أنهم ليسوا حُمراً ، فذلك أن ألوان بشرتهم كانت تختلف باختلاف بيناتهم وقبائلهم وتتردد بين الأصفر والأبيض والأسمر والأسود ؛ ولكن لم يكن من بينها مطلقاً أى مظهر من مظاهر اللون الأحمر أو ما يقرب منه .

وقد نشأ الخطأ في تسميتهم هنوداً عن وهم تاريخي جغرافي . وذلك أن كريستوف كولومب «Christophe-Colomb»

الذى يرجع إليه الفضل في الكشف عن أمريكا قد خيّل إليه حينما وصل إلى هذه القارة عن طريق المحيط الأطلانطي أنهُ قد وصل إلى بلاد الهند عن طريق بحرى غير الطريق المعهود حينئذ ؛ فسمى أول من شاهدهم من الأناسي في هذه البلاد باسم الهنود . ومع أن الحقيقة لم تلبث أن ظهرت بعد قليل ، وتبين أن البلاد بلاد جديدة لا علاقة لها بالهند ، وأن الشعب شعب جديد لا صلة له بالهنود ، فقد ظل اسم « الهنود » عالماً بهذه القبائل ، واسم « بلاد الهند » عالماً ببلادهم إلى الوقت الحاضر ، بعد أن أضيف وصف « الأحمر » إلى كلمة الهنود تمييزاً لهم عن سكان الهند ،

ووصف « الغربية » « Indes Occidentale » إلى كلمة الهند تمييزاً لبلادهم عن بلاد الهند .
 وأما الخطأ في تسميتهم « حمراً » ، فيظهر أنه قد نشأ عن وهم حسى اجتماعى . وذلك أن هؤلاء البدائين كانوا إذا نفروا للحرب صبغوا وجوههم بصبغة حمراء قانية أو لبسوا أقنعة مصبوعة بهذا اللون ، وكان بعضهم يفعل شيئاً من ذلك إذا خرج للصيد . فلعل أول من شاهدهم من الأوربيين على هذه الصورة قد ظن أن ألوان بشرتهم حمراء ، أو قد استوقف نظره براعتهم في هذا التاوين الصناعى فأطلق عليهم هذا الوصف الذى خلده الاستعمال فيما بعد .

أصولهم وهواطنهم الأولى

وقد اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في المواطن الأولى التى وفد منها الهنود الحمر وسائر السكان الأصليين لقارة

أمريكا ، ولم يغادروا أى احتمال ممكن إلا افتراضوه وتلمسوا
من الشواهد ما يؤيده .

فبعضهم يرى أن الإنسان على العموم قد نشأ فى قارة
آسيا ، ثم انتشر منها فى سائر القارات الأخرى . وقد نرح
منها إلى قارة أمريكا عن طريق بهرنج ، الذى كان فى
الأصل برزخاً كبيراً يابساً يصل بين آسيا وأمريكا ، ثم
أخذت مياه المحيطات تنتقصه من أطرافه حتى أتت عليه ،
وأصبح الآن بوغازاً مائياً يفصل بين القارتين . فالهنود الحمر
وسائر السكان الأصليين لأمريكا يرجع أصلهم إذن إلى
آسيا . وكانت سيبيريا آخر موطن فى آسيا لآبائهم
الأولين ؛ ومن سيبيريا انحدروا عن طريق بهرنج إلى
الأسكا ؛ ثم انتشروا فى مختلف أنحاء الدنيا الجديدة .
ويؤيد هذا الفريق مذهبه بما ثبت لدى الباحثين من علماء
الأجناس من وجوه الشبه الواضحة فى النواحي الجسمية
وغيرها بين سكان سيبيريا الشرقية بآسيا وعشائر الهنود
الحمر بأمريكا الشمالية ، وخاصة العشائر التى تسكن
شمالها الغربى فى منطقة الأسكا وما إليها .

وبعضهم يرى أنه من الممكن أن تكون موجة الهجرة
 الإنسانية قد سارت في عكس الطريق الذي يرسمه أصحاب
 المذهب السابق ، أي من أمريكا إلى آسيا ، وأن يكون
 سكان سيبريا وما إليها من بلاد آسيا قد انحدروا إليها
 من شمال أمريكا عن طريق برزخ بهرنج . ويؤيد هذا
 الفريق مذهبه بما ثبت لدى الباحثين بصدد التاريخ الطبيعي
 لفصيلة الخيل ، وهو تاريخ واضح المعالم ، متميز المراحل ،
 يقيني الحقائق ، لم يصل إلى درجة وضوحه تاريخ أى حيوان
 آخر . فقد أصبح من المقرر في هذا التاريخ - فى ضوء
 ما كشفه الباحثون من حفريات - أن أمريكا كانت الموطن
 الأصلي لفصيلة الخيل ، ومن أمريكا انتشرت هذه الفصيلة
 فى سيبريا عن طريق بهرنج ، ثم انتشرت من سيبريا إلى
 أوروبا ، ومن أوروبا إلى سائر أنحاء الدنيا القديمة . فمن
 الممكن إذن أن يكون الإنسان قد سلك فى هجرته السبيل
 نفسها التى سلكها الحصان ، وأن يكون التشابه الذى
 ألمعنا إليه فيما سبق بين سكان سيبريا الشرقية والهنود الحمر
 منشؤه أن الهنود الحمر كانوا أصلا لسكان سيبريا الشرقية

لا العكس كما يزعم أصحاب المذهب السابق .

وبعضهم يرى أنه من الممكن أن يكون الهنود الحمر وسائر السكان الأصليين لأمريكا قد نزحوا إليها من أطراف أوروبا عن طريق قارة قديمة يسمونها الأتلنتيد «L'Atlantide» كانت تشغل حيزاً كبيراً في شمال المحيط الأطلسي وتصل أوروبا بأمريكا ، ثم طغت عليها فيما بعد مياه البحار . ويستدل هذا الفريق على صحة فرضه بوجوده الشبه وأواصر القرابة التي ظن بعض الباحثين في اللغات وجودها بين بعض اللهجات الأوربية وبعض لهجات الهنود الحمر .

وبعضهم يرى أن الهنود الحمر قد نزحوا إلى أمريكا من أستراليا والجزر المحيطة بها ، وخاصة من مناطق الملايا وبولينيزيا . ويؤيد هذا الفريق مذهبه بما بين الهنود الحمر والسكان الأصليين لأستراليا من شبه واضح في التكوين الجسمي والشعبي وفي بعض ظواهر اللغة ، وتقارب كبير في الأصول العامة التي تقوم عليها عقائد الدين وقواعد الأسرة ونظم الاجتماع .

وأدنى المذاهب جميعاً إلى الصحة في هذا الصدد هو



[اللوحة رقم ٣]

في اليمين محارب من عشائر «الثعلب»
وفي الشمال محارب من عشائر «السيو»



[اللوحة رقم ٤]

في اليمين امرأة من عشائر السيو في حلة مزينة بأسنان بعض الحيوانات
وفي الشمال محارب من عشائر المندان .

المذهب الذى يجمع بين الرأيين الأول والأخير والذى يميل إليه العلامة الدكتور پول ريفيه «Dr Paul Rivet» إذ يقرر « أنه مما لا شك فيه أن عناصر أسترالية وميلانيزية قد تسربت إلى أمريكا ونشأ منها بعض عناصر الهنود الحمر ؛ ولكن مما لا شك فيه كذلك ، ومما يؤيده جميع الثقافات من الباحثين فى شعوب أمريكا «Américanistes» أن القسم الأكبر من الهنود الحمر ومن السكان الأصليين لأمريكا على العموم قد انحدر من آسيا .

٣

حضاراتهم قديماً وحديثاً

ومهما يكن من شىء بصدد المواطن الأولى التى وفد منها الهنود الحمر ، فمن المحقق أنهم قضوا فى موطنهم الجديد قبل أن يكشفه الأوروبيون حقبة طويلة اجتازوا فى أثنائها مراحل كثيرة فى ميادين التطور الجسمى والعقلى والاجتماعى وفى شؤون الحضارة العامة . ويظهر أنه قد مرت بهم عصور

حضارة زاهرة ، ثم ارتكسوا من بعدها إلى الحالة البدائية التي كانوا عليها حين كشف عنهم الأوربيون . ويدل على ذلك تلك المباني الأثرية العجيبة التي وجدت منتشرة فيما نسميه الآن بالولايات المتحدة والتي تشهد بحضارة إنسانية كبيرة نعيمت بها هذه المناطق ونعم بها سكانها في فترة ما من تاريخها القديم . وتنتظم هذه المباني الأثرية طوائف مختلفة في نوعها ومناطقها . فمنها ما يسمى بالحصون «Mounds» التي يصل ارتفاع بعضها إلى ثلاثين متراً بل إلى أكثر من ذلك أحياناً ، وينألف معظمها من أضرحة ومقابر . وقد عُثِرَ فيها بجانب رفات الموتى ، على أوان ومواعين وأثاث وزخارف وآثار أخرى كثيرة مصنوعة من الأحجار والذهب والنحاس . ومنها ما يسمى مساكِن السدود أو الحواجز «cliff-dwellings» . ومنها ما يسمى بالقرى «pueblos» (القرى باللغة الإسبانية) .

وحتى في العصر نفسه الذي بدأ فيه الاستعمار الأوربي ، كان في قارة أمريكا شعوب تنعم بحضارة موطدة وملك كبير ، كشعوب الإنكا «Incas» التي كانت تسكن منطقة بيرو

وشعوب الأرتك «Azteques» التي كانت تسكن بلاد المكسيك . وقد كاد سنا حضارتهم يذهب بأبصار المستعمرين الأوائل من الإسبان ؛ فرأوا أنه لا يستتب لهم أمر إلا إذا أتوا على قواعد هذه الحضارة وأبادوا هذه الشعوب ؛ فطفقوا يسلطون عليهم وعلى بلادهم وآثارهم معاول التدمير والفساد حتى تم لهم غرضهم الأثيم . غير أن هذه الشعوب - وإن تألف منها قسم من السكان الأصليين لقارة أمريكا - ليست من شعوب الهنود الحمر الذين نتحدث عنهم ، كما أن مساكنهم تبعد كثيراً إلى الجنوب عن المناطق التي كان يسكنها أو يتنقل فيها عشائر الهنود الحمر .

٤

تخلخلهم وأسبابه

ومع أن الهنود الحمر كانوا يسكنون منطقة واسعة الأرجاء مترامية الأطراف ، بل قارة كبيرة من أكبر قارات العالم ، فإن عددهم في فاتحة الاستعمار الأوربي ما كان يتجاوز

ثلثمائة ألف نسمة . ولعل التبعة في تخلصهم هذا وفي تعويق نموهم يرجع على الأخص إلى مظاهر النشاط التي سنعالجها بتفصيل في البابين الثاني والثالث من هذا الكتاب ، وهي القتال والفروسية والصيد . فقد استحوذت عليهم نزعة الحرب ، وحببت إليهم الفروسية خوض المعارك ، فأصبحوا لا يسأمون الصراع ، ولا يملّون المنايا ، ولا يجدون سعادتهم إلا في ميادين القتال ؛ وأخذت حروبهم الأهلية لا يخف لها دوى ، ولا يخمد لها سعير ، حتى مزقتهم شر ممزق ، ووقفت بنموهم إلى الحد الضئيل الذي ذكرناه . وأسلوب الصيد البري الذي كانوا يسيرون عليه كان قائماً على البحث عما تجود به الطبيعة وحدها من حيوان والعمل على إبادته واستهلاكه لسد الحاجات العاجلة للإنسان ، بدون نظر إلى المستقبل ولا حرص على بقاء هذا المورد ولا على نمائه . وغنى عن البيان أن أسلوباً هذا شأنه ، وما يقتضيه من حياة التنقل والنجعة في البحث عن الحيوانات ومطاردة قطعانها ، كل ذلك يعرض الشعوب للمتاعب والمجاعات ، ويحول دون اطمئنانها واستقرارها ، ويعوق تقدمها ونموها ،

ولا يتفق في شيء مع ما تتطلبه الحضارة والحياة الاجتماعية الراقية . ولذلك ظلت جميع الشعوب التي كانت تقتصر في سد حاجاتها على الصيد البري متأخرة في جميع مظاهر حياتها بطيئة في نموها .

٥

أقسامهم بحسب أساليب الحياة والمهنة السائدة
هنود السهول وأهم قبائلهم

ومع أن معظم الهنود الحمر كانوا يعتمدون في حياتهم على الصيد البري في سهول أمريكا ، فإن بعض عشائهم كانت تسلك في حياتها مناهج أخرى . ومن الممكن تقسيمهم جميعاً بحسب المهنة السائدة وأساليب الحياة إلى ثلاث طوائف .

١ - هنود البحيرات والأنهار et Indiens des lacs

des fleuves) وهم الذين كانوا يسكنون بالقرب من سواحل البحيرات والأنهار ويعتمدون في سد حاجاتهم على الصيد

المائى . وقد وجد هؤلاء بجانبهم موارد رزق لا ينضب لها معين ، فأعفاهم هذا من مشاق التنقل وأغراهم بالاستقرار .

٢ - هنود الغابات «Indiens des forêts» ؛ وهم الذين كانوا يسكنون بالقرب من الغابات ، ويعتمدون في سد حاجاتهم على صيد حيوانها البرى والانتفاع بنباتها . وكان معظم هؤلاء يميلون كذلك إلى الاستقرار فى مناطق ثابتة لا يبرحونها . وقد يسر لهم هذا الاستقرار غزارة الموارد الحيوانية والنباتية المتاحة لديارهم ، واستقرار هذه الموارد نفسها : فالنبات ثابت بطبعه ؛ وحيوان الغابة لا تتجاوز تنقلاته نطاقاً محدوداً . (انظر مثالا لمساكن هذه الطائفة والطائفة السابقة فى اللوحة رقم ٥ صفحة ٢٣)

٣ - هنود السهول «Indiens des plaines» ؛ وهم الذين كانوا يعتمدون فى سد حاجاتهم على الصيد البرى لحيوان السهول ، وكانت حياتهم حياة بدائة ونسجعة وضرب فى الأرض . وقد حملهم على ذلك طبيعة المورد نفسه الذى يعتمدون عليه . فحيوان السهول حيوان متنقل مهاجر بطبعه ؛ فكان لزاماً - وهو قوام حياتهم - أن يرحلوا معه حيثما رحل . هذا إلى أنهم كانوا كلما نزلوا منطقة لا تلبث حيواناتها

أن تنفذ أو تشرف على النفاذ أو تهاجر إلى منطقة أخرى تحت تأثير ما يشنونه عليها من غارات الصيد والمطاردة ، فيتجاوزونها إلى منطقة أخرى وهكذا دواليك .

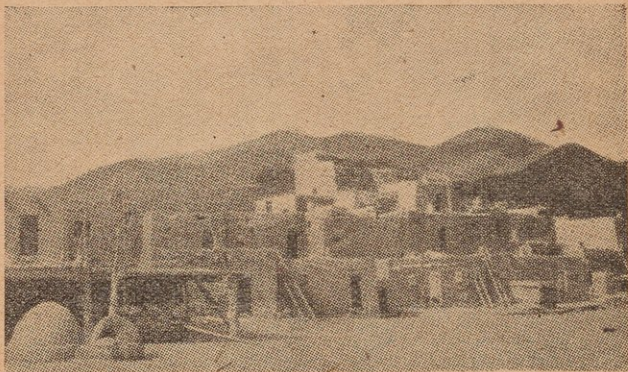
(انظر مثالا لمساكن هذه الطائفة في اللوحة رقم ٦ ص ٢٤) . وكانت السهول التي يتنقلون فيها واسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف ، تشمل المنطقة الوسطى جميعها من البلاد التي نسميها الآن بالولايات المتحدة .

ومن هنود السهول يتألف أهم قبائل الهنود الحمر وأكثرها عدداً وأعظمها شأنًا في التاريخ ؛ حتى إن كلمة « الهنود الحمر » تكاد تكون مقصورة عليهم في استخدامها المألوف . ومن هذا القسم وحده تستمد بحوثنا مادتها ، وحول قبائله وحدها سيدور جميع حديثنا في هذا الكتاب .

وينشعب هنود السهول إلى عدة قبائل تنتظم كل قبيلة منها عشائر كثيرة . ومن أهم قبائلهم قبائل السيو «Les Sioux» التي كان لها أكبر أثر في تاريخ الهنود الحمر على العموم وفي تاريخ حروبهم مع الأوربيين بوجه خاص ؛ وقبائل الأقدام السوداء «Les Pieds-Noirs» التي كانت في

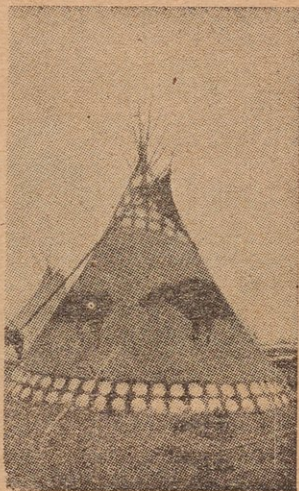
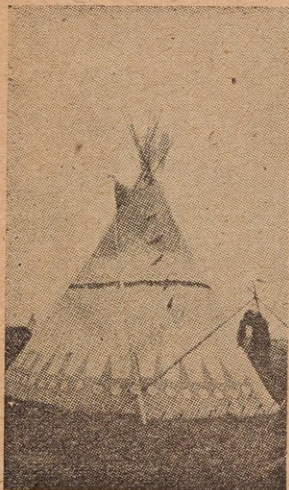
صراع دائم مع جيرانها السيو ، حتى دخل الأوريون بلاد هؤلاء وأولئك ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، فألفت نكبتهم المشتركة بين قلوبهم ، وتضافروا على قتال عدوهم الدخيل ؛ وقبائل الكومانش «Les Comanches» الذين وصلوا إلى منزلة منقطعة النظير في تجويد الفروسية والإمام بطباع الحيل وإتقان الخداع في القتال ؛ وقبائل الشين «Les Cheyennes» الذين كانت لهم أيام مجيدة في صراع الهنود الحمر مع الأوريين ، وكانوا مبرزين في حلبات الصيد ، وخاصة صيد الحصان الوحشى ؛ وقبائل الأباش «Les Appaches» الذين اتخذوا الحرب وتعذيب الأسرى والتمثيل بجسوم الأعداء هواية وحرفة ، فنشروا الذعر والحراب والدمار في جميع أرجاء القارة ، وتجرعت كئوسهم مترعة معظم عشائر الهنود الحمر ، ثم تجرعتها أخيراً الأوريون أنفسهم في بلاد المكسيك .

(انظر صوراً لأفراد من مختلف هذه العشائر في اللوحات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ في صفحات ٥ ، ٦ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٠) .



[اللوحة رقم ٥]

مثال للمساكن المستقرة لهذه الشعوب (وهي قرية في المنطقة الشمالية
من بلاد المكسيك مبنية منازلها من اللبن) .



[اللوحة رقم ٦]

مثال للمساكن المتنقلة لهذه الشعوب (وهي خيمة يتخذها عشائر «الأقدام السوداء» من جلد الجاموس الوحشى بعد دبله وتزيينه برسم أشكال وحيوانات على ظاهره)

اختلاف ألوانهم وألسنتهم وصفاتهم الجسمية

وكما كان الهنود الحمر يختلفون في مواطنهم وأساليب حياتهم وما يزاوونه من حرف ، كانوا يختلفون كذلك اختلافاً كبيراً في ألوان بشرتهم وشعرهم وعيونهم وفي طول قاماتهم وتكوينهم الجسمي على العموم وفي وسائل تعبيرهم ولغاتهم وطبقاتهم ؛ حتى إن الخلاف بين قبيلة وقبيلة في هذه الأمور وما إليها كان لا يقل أحياناً عن الخلاف بين عربى ونرويجى أو بين تركى وإنجليزى .

فقما يتعلق بألوان بشرتهم كان منهم ذوو اللون الأصفر الذين يشبهون سكان الملايا ، وذوو اللون الأبيض الذين يشبهون الأوربيين ، وذوو اللون الأسمر أو الأدهم الذين يشبهون الأحباش والسنغاليين .

وكذلك كان اختلافهم في ألوان شعرهم وعيونهم وطول قاماتهم وشكل أنوفهم وسائر مظاهر تكوينهم الجسمي . فعشائر السيو مثلاً كانوا يمتازون بطول القامة وانثناء أرنبة

الأنف كمنقا النسرة وسمرة الشعر سمرة قائمة ؛ على حين أن الكومانش كانوا ربعات القامة ، ليسوا طوالا ولا قصاراً ، معتدلى الأنوف ، سود الشعور ، يمتازون بجمال الوجه وكمال التناسق في أجزائه . وكثيراً ما كانت عشائر القبيلة الواحدة تختلف فيما بينها اختلافاً غير يسير في هذه الشؤون . وقد تشد أحياناً عشيرة ما في هذا الصدد شذوذاً كبيراً عن سائر عشائر القبيلة ؛ فعشائر المندان مثلاً «Mandans» وهي إحدى عشائر السيو كانت تختلف عن سائر بني عمومتهما اختلافاً كبيراً في هذه الصفات . بل لقد لاحظ العلامة كتلان «Catlin» أن من بين بطون هذه العشيرة أسرات يمتاز أفرادها بزرقه العيون وشعر كعشعر الإنجليز ومن إليهم في لونه واسترساله ؛ حتى لقد ظن بعضهم أن عشيرة المندان هذه أو بعض شعبها منحدره من عشائر الكلت «Celts» الأوربية لشدة شبهها بالأوربيين في التكوين الجسمي ولون الشعر والعيون . (انظر صوراً لأفراد من مختلف هذه العشائر في اللوحات

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ بصفحات ٥ ، ٦ ،

١٣ ، ١٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٤٠) .

ولا يقل اختلافهم في وسائل التعبير واللغات واللهجات
 عن اختلافهم في صفات الجسم . فقد بلغت اللغات
 المستخدمة عند السكان الأصليين لأمریکا الشمالية - حسب
 أحدث البحوث اللغوية - سبعاً وعشرين فصيلة تشتمل كل
 فصيلة منها على عدد كبير من الشعب وكل شعبة على عدة
 لغات وكل لغة على عدة لهجات ، وتختلف كل فصيلة
 منها عما عداها في شؤون الصوت والبنية والقواعد والدلالة
 وسائر مظاهر التعبير اختلافاً جوهرياً لا يقل عن اختلاف
 الفصيلة السامية عن الفصيلة الهندية - الأوربية .
 ومن أشهر هذه الفصائل الفصيلة الإسكيموية ، وهي
 المستخدمة عند عشائر الإسكيمو التي تسكن المناطق
 القطبية ؛ والفصيلة الإيروكوية «Iroquois» ، وهي
 المستخدمة عند قبائل الإيروكويين التي تسكن المنطقة
 الواقعة في الجنوب الشرقي من بحيرتي إيري وأونتاريو، Erie
 Ontario بالقرب من السواحل الشمالية الشرقية من الولايات
 المتحدة ؛ والفصيلة الأبلجونكية «famille algonquine»
 التي كان يتكلم بها قبائل الأبلجونكيين «Algonquins» التي

كانت تسكن في شرق أمريكا الشمالية مناطق واسعة تمتد من جنوب نهر سان لوران «Saint-Laurent» حتى جبال الألبانيز «Alleghanys» ولا نكاد نعر منها الآن إلا على بعض عشائر مبعثرة في بلاد كندا ، ومن هذه الفصيلة اللغوية شعبة مستخدمة بين هنود السهول وهي الشعبة الشينية «groupe Seyen» التي يتكلم بها عشائر الشين «Cheyennes» وهم فرع من قبائل الألبونكيين) ؛ وفصيلة لغات السيو ، التي كانت مستخدمة عند عشائر السيو السابق ذكرها، وهذه هي أهم فصيلة كانت سائدة بين هنود السهول ، وكانت تنقسم إلى عدة شعب ولغات ولهجات .

ولشدة الاختلاف بين الهنود الحمر في لغاتهم ولهجاتهم كانت العشائر المختلفة تستخدم في الغالب لتفاهمها بعضها مع بعض لغة الإشارات باليد وأجزاء الجسم والثياب . فكان إذا التقى أحد الهنود الحمر بآخر من غير عشيرته مختلف عنه في اللغة ، كانا يلبجان في تعبيرهما إلى لغة الإشارات التي كانت تعتبر عند هذه العشائر بمثابة لغة دولية . وقد مهر الهنود الحمر فيها أيما مهارة ، حتى لقد كان في إمكان



[اللوحة رقم ٧]

في اليمن : محارب من عشائر « الأباش » في لباس حربي
حاملًا قوسه وترسه .

في الوسط : أحد سكان القرى في زى يحاكي زى الأوربيين .
في اليسار : أحد عشائر « النافاهو » في لباس جميل مرصع
بجلي من فضة .



[اللوحة رقم ٨]

رئيس لإحدى عشائر «الكومانش» مع زوجته

المتخاطبين أن يظلا يوماً كاملاً يتحدثان عن طريق
الإشارات باليد والأصابع والرجلين والثياب وأن يقص كل
منهما على الآخر كل ما يود أن يقصه عليه .

هذا إلى أن بعض عشائر الهنود الحمر كانت لا تكاد
تستخدم في تفاهم أفرادها بعضهم مع بعض ، ولا في
تفاهمهم مع غيرهم ، إلا هذه الإشارات . وكان يتكون منها
حينئذ لغة كاملة مستقلة تستخدم وحدها في جميع الشئون
والظروف . ويسمى هذا النوع « لغة الإشارات » أو
« الإشارات التحليلية » «gestes analytiques» الذى عنى
بدراسته عدد كبير من علماء الإثنوجرافيا والاجتماع .



اتفاقهم في أصول النظام الاجتماعي

نظام التوتم وصلته بمختلف شؤون الحياة

على الرغم من اختلاف هذه القبائل في جميع التفاصيل السابق ذكرها وفي غيرها مما شاكلها ، فإنها كانت متشابهة تشابهاً كبيراً يصل أحياناً إلى درجة الاتفاق الكامل في الأسس العامة التي يقوم عليها النظام الاجتماعي . فقد كانت هذه الأسس ترجع جميعاً إلى النظام التوتمي «totemisme» أي اعتقاد العشيرة أنها تنتمي إلى توتم خاص «totem» . والتوتم نوع من الحيوان أو النبات أو الجهاد أو مظاهر الطبيعة تتخذه العشيرة رمزاً لها ولقباً لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التي ترمز إليه منزلة التقديس . ويلاحظ أن معظم التواتم تتألف من أنواع من الحيوان والنبات ، وأن الحيواني منها أكثر من النباتي . ويندر أن يكون التوتم من الجهاد أو من

مظاهر الطبيعة . فمن بين التوائم الخمسة التي كشفتها
الأستاذ هويت «Howitt» عند العشائر الجنوبية الشرقية
من سكان أستراليا الأصليين ، يرجع أربعائة وستون إلى
أنواع حيوانية ونباتية وأربعون فقط إلى أنواع أخرى يتألف
معظمها من مظاهر السماء والحو والطبيعة كالسحاب والمطر
والبرد والرياح والفصول الأربعة والشمس والقمر وبعض
الكواكب والماء والنار والدخان والبحار وهلم جرا .
والغالب في التوتم أن يكون نوعاً لا فرداً معيناً أو أفراداً
معينين . فالعشيرة لا تنتمي مثلاً إلى ذئب معين أو نمر
معين ، وإنما تنتمي إلى فصيلة الذئب أو فصيلة النمر .
فإنما مجموعة من الأفراد لتوتم واحد كان يجعلهم أفراد
عشيرة واحدة بل أسرة واحدة ، ويربط بعضهم ببعض
برابطة قرابة قوية متحدة في درجتها وقوتها . وكان هذا
النظام يتجه بعقائد كل عشيرة وتفكيرها وفهمها للعالم ولما
وراء الطبيعة وجهة خاصة ، ويرسم لها مناهج معينة في
مختلف شؤونها الاجتماعية وفي تنظيم العلاقات التي تربط أفرادها
بعضهم ببعض وتربطهم بمن عداهم من الأناسي وبما

عداهم من ظواهر الكون ، ويضع لسائر مظاهر نشاطها ونشاط أفرادها قواعد مضبوطة ثابتة . فلهذا النظام الأساسي كانت تخضع جميع النظم الاجتماعية الأخرى ، وعن تعاليمه وأصوله كانت تنشعب قواعد الدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد والقضاء والأسرة والتربية والفنون . . . وسائر ظاهرات العمران .

٨

عناية علماء الاجتماع بدراسة هؤلاء البدائيين
مبلغ تمثيلهم للإنسانية في أقدم عهودها

وقد عني علماء الاجتماع والإثنوجرافيا أيما عناية بدراسة الشعوب البدائية ونظامها التوتمي وما انشعب عنه من نظم اجتماعية أخرى ، حتى لقد شغلت بحوثهم في هذه الأمور مئات من المجلدات ، وغطت على جميع ما عداها من بحوث علم الاجتماع . ولا يرجع السبب في ذلك إلى طرافة هذه النظم وغرابتها وأهميتها في ذاتها فحسب ، وإنما يرجع كذلك إلى أنها تنير أمامنا الطريق للوقوف على الأصول القديمة

لنظم الاجتماع الإنساني ، وتعرض لنا نماذج مما كانت عليه
المجتمعات الإنسانية في نشأتها الأولى . وذلك أنه قد جرت
عادة علماء الاجتماع أن يعتبروا بعض الشعوب البدائية ،
وخاصة السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا ، ممثلة ، إلى
حد ما لما كانت عليه الإنسانية في فجر نشأتها . وذلك لأن
هذه الشعوب قد ظلت أمداً طويلاً بمعزل عن التيارات
الحضارية الكبرى التي توالى ظهورها بين سكان القارات
القديمة ؛ فكان طبيعياً إذن أن تظل هذه الشعوب جامدة
على حالتها القديمة أو ما يقرب منها ، وألا تتحزح كثيراً
عن أقدم الأوضاع التي كانت عليها الجماعات الإنسانية .
وليس معنى ذلك أنها قد سلمت من التطور ، وأفلتت
من قانونه ؛ لأن التطور هو سنة الاجتماع ، وناموس الكائنات
الحية على الإطلاق . ولكن انعزالها عن أمم العالم القديم ،
وبعدها عن تيارات الحضارة التي اعتورته ، كل ذلك قد
ساعد على احتفاظها بكثير من النظم التي سارت عليها
المجتمعات الإنسانية في أقدم عهودها . فهذه الشعوب في
نظر بعض علماء الاجتماع بمنزلة المتاحف في نظر علماء الآثار .

موضوع البابين الآتين

هذا ، وسندرس في شيء من التفصيل ، في البابين الباقيين من هذا الكتاب ، ثلاث نواح من مظاهر النشاط الاجتماعي عند سكان السهول من الهنود الحمر ، وهي الصيد والفروسية والقتال .

وهذه النواحي الثلاث تربطها بعضها ببعض روابط وثيقة حتى لتبدو كأنها مجرد مظاهر لنوع واحد من النشاط . فهي قائمة على دعامة واحدة وتشبع نزعة واحدة من نزعات الإنسان : فالصيد والقتال كلاهما ينطوي على الإغارة والعدوان ؛ وكلاهما يرمى إلى التغلب على العدو أو القنيص وأسره أو إهلاكه ؛ أما الفروسية فلم تكن غاية في ذاتها وإنما كانت مجرد وسيلة لهذين الأمرين .

وكانت هذه الأمور الثلاثة عند سكان السهول من الهنود الحمر من أنبل الأعمال الإنسانية جميعاً وأجلها منزلة وأعظمها

خطراً . ولذلك اقتصرت بها الرجال دون النساء ؛ بل كان نشاط الرجال مقصوراً عليها وحدها . أما ما دون ذلك من الأعمال في داخل المنزل وخارجه فقد كان يقع على كاهل الجنس الضعيف .

وقد نبغ هنود السهول في شؤون الصيد والفروسية والقتال أيما نبوغ ، وجودوا أعمالها كل التجويد ، وبلغوا في مضايرها منزلة منقطعة النظير ، حتى تميزت بها شخصيتهم ، وكان لها أكبر شأن في تاريخهم من قبل الاستعمار الأوربي ومن بعده ؛ وكانوا يعالجونها بمناهج وطرق ممتعة بارعة ويأتون فيها بأعمال غريبة خارقة للعادة حار الباحثون في تفسير كثير منها حتى لقد ظن بعضهم أنها من ضروب السحر . فالمسائل التي سنعالجها في الجزء الباقي من كتابنا تجمعها إذن عدة صفات مشتركة ، وتربطها عدة روابط وثيقة ، ويأخذ بعضها بحُجَز بعض .

وسنعتقد باباً للصيد وآخر للقتال أما الفروسية فسترد موضوعاتها في خلال هذين البابين ؛ وذلك لأن بعض مظاهرها يتصل بالصيد وخاصة صيد الحصان الوحشي

واستثناسه واستخدامه ، وبعض مظاهرها يتصل بالقتال
وطرائقه ؛ وهي فوق هذا كله وسيلة لكلتا الناحيتين .
وموضوع هذا شأنه لا يلائمه باب مستقل ؛ ولذلك عالجنا
مسائلها في ثنايا البابين ، فعرضنا لما يتعلق منها بالصيد في
الباب الثاني ، ولما يتعلق منها بالقتال في الباب الثالث .





[اللوحة رقم ٩]

أحد سكان القرى في المنطقة الشمالية
من بلاد المكسيك



[اللوحة رقم ١٠]

طفل من عشائر « الأباش »

الباب الثاني

الصيد عند الهنود الحمر

١

عناصر الصيد عند الهنود الحمر

يقوم الصيد على دعائم ثلاث : إحداهما الآلات التي يستعين بها الإنسان ؛ وثانيها الحيوانات التي يريد صيدها ؛ وثالثها الجهود التي يبذلها والخطط التي تسير عليها أعماله . أو بتعبير آخر مألوف لعلماء الاقتصاد السياسي : يعتمد الصيد ، كسائر مظاهر الإنتاج الأخرى ، على رأس المال ممثلاً في الآلات ؛ وعلى الطبيعة ممثلة في الحيوان ؛ وعلى العمل ممثلاً في الجهود التي يبذلها الإنسان والمناهج والخطط التي تنظم هذه الجهود .

* * *

١ - أما آلات الصيد ، وهي رءوس الأموال في موضوعنا ،

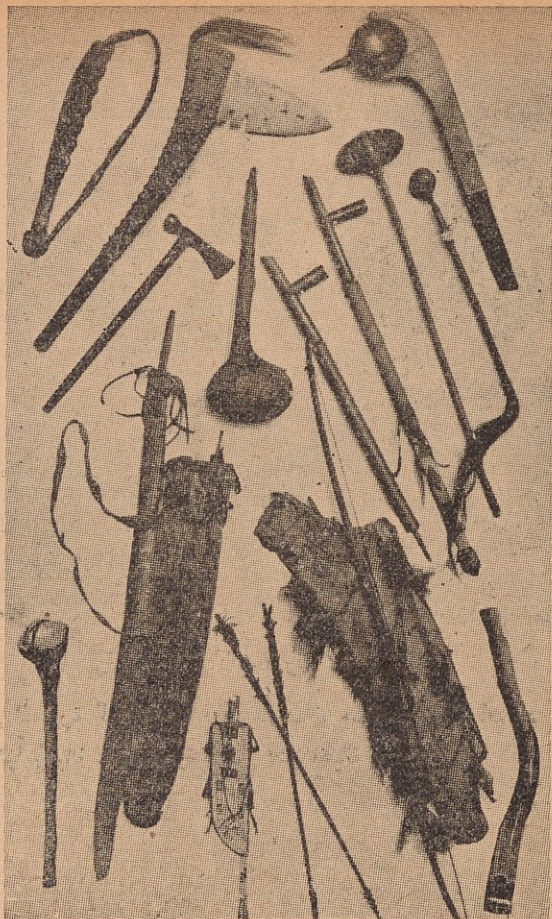
فقد كانت عند الهنود الحمر بدائية ساذجة بعيدة كل البعد
 عن الكمال . وكانت تتخذ من الأحجار والنحاس (فلم
 يعرف الحديد لدى سكان أمريكا قبل أن يكشفها كولومب)
 ومن بعض أجزاء الجاموس الوحشى *Le Bison* وخاصة
 عظامه وجلده وعروقه وأوتاره وأمعائه . غير أنها مع ذلك
 كانت متعددة الأنواع ، مختلفة الاستخدام . فكان منها
 الآلات الكاسرة الدامغة التي يتمثل معظمها في أحجار
 غير مثقفة ولا مشحودة مثبتة في مقابض . فيمسك الصائد
 بمقابضها وهوى بها على رأس الحيوان أو على جزء من أجزاء
 جسمه . وكان منها الأسلحة القاطعة المشحودة الشفرات
 كالسكاكين والخناجر . وكان منها الأسلحة النافذة المارقة ،
 وهي المدببة الأطراف التي تنفذ في جسم الحيوان وتخرقه
 وتمرق منه أحياناً . وكان بعضها يستخدم باليد مباشرة
 كالحراب وما إليها ، وبعضها يستخدم قذيفة من قوس
 كالسهام . وهذا النوع الأخير بمختلف مظاهره ، وخاصة
 السهام ، كان أهم آلات الصيد عند الهنود الحمر وأكثرها
 استخداماً . وكانت السهام نفسها على أنواع كثيرة : فمنها

ما كان يستخدم في صيد الطيور ؛ ومنها ما كان يستخدم
 في صيد الحيوان . والمستخدم منها في صيد الحيوان كان
 مدبب الريش (١) ، وكان من الممكن فصله بسهولة من
 جسم الحيوان المصاب واستخدامه في صيد حيوان آخر .
 وأما المستخدم منها في صيد الطيور فلم يكن مدبب الريش ،
 ولم يكن ينفذ في رميته ؛ وإنما كان يصدمها صدمة عنيفة
 تسقطها . وقد حمل الهنود الحمر على ذلك ، فيما يظهر ،
 شدة حرصهم على أن يبقى ريش الطيور سليماً ، لشدة حاجتهم
 إليه وكثرة استخدامهم له في ملابسهم وزينتهم وغطاء
 رؤسهم . وكان من آلات الصيد لديهم كذلك الآلات
 المغررة القابضة كالنفخاخ والأشراك والحبال والشباك والشصوص .
 وكان منها الآلات المغررة المحاكية ، كجلد الوعل أو الذئب
 الذي كان يلبسه الهندي ويتقدم به نحو القطيع محاكياً
 مشيته فيتمكن بذلك من الاقتراب من بعض أفرادها وصيدها .
 وكان منها الآلات الجالدة كالسياط ونحوها . وكان منها
 آلات التكتيف والتقييد والشد والإيثاق والغل والخنق كالحبال

(١) الريش هو الجزء الأخير من السهم الذي ينفذ في الرمية .

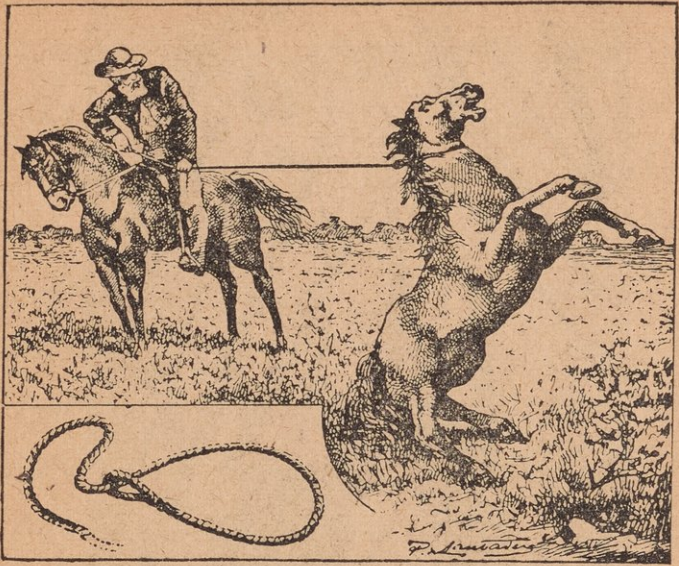
والأغلال . ومن أشهر هذه الآلات عندهم الحباله Lasso التي كانت تستخدم في صيد كثير من الحيوانات وخاصة الحصان الوحشى ، وكانت عبارة عن حبل غليظ ينتهى بطوق معدنى أو بأنشوطه يمر فيها الطرف الآخر للحبل ، فيتكون في آخره طوق يتسع أو يضيق حسب الحاجة . وكان الهندى يمسك بطرفها المرسل في يده ويقذف طرفها الآخر المعقود نحو الحصان فى رمية سريعة ماهرة ؛ فإذا طوق الحباله حول رقبة الحصان ، وإذا بقطر هذا الطوق يضيق شيئاً فشيئاً حتى يكاد يعصر حلقة عصرأ . (انظر بعض آلات الصيد فى اللوحتين رقمى ١١ و ١٢ صفحتى ٤٥ و ٤٦)

هذا ، ويلحق بآلات الصيد ما كان يلجأ إليه الهنود الحمر أحياناً من الاستعانة بالكلاب والخيول وبعض الحيوانات المستأنسة الأخرى فى عمليات الصيد . غير أنهم ما كانوا يعنون بتدريب أية طائفة من هذه الحيوانات تدريباً خاصاً على أعمال الصيد ، ولم توجد لديهم أصناف خاصة من الكلاب مدربة على هذه الأعمال ؛ وإنما كانت استعانتهم بهذه الحيوانات فى أعمال الصيد تقوم



[اللوحة رقم ١١]

بعض آلات الصيد والقتال عند الهنود الحمر



[اللوحة رقم ١٢]

تمثل الصورة العليا صائداً فوق حصان مستأنس وقد اصطاد حصاناً
وحشياً بالجمالة ، والصورة السفلى تمثل الجمالة .

في الغالب على الارتجال ، وتختلف طرقها ونتائجها باختلاف الظروف ومبلغ مواتها والذكاء الفطري للحيوان المستخدم نفسه .

ويلحق بآلات الصيد كذلك ما كانوا يلجأون إليه أحياناً من استخدام النار والدخان والأضواء للتأثير في الحيوان ووضع السموم في اللحوم والأعشاب على ما سيأتي بيانه في آخر الفقرة التالية .

* * *

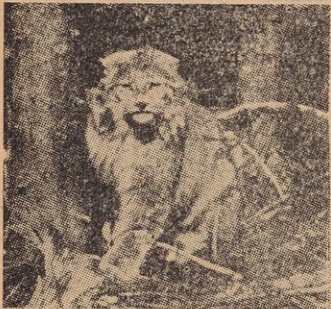
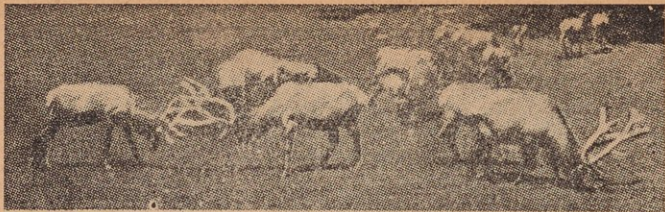
وفي بعض عمليات الصيد كان الهنود الحمر يستغنون عن جميع الآلات وملحقاتها ، ولا يستخدمون إلا أيديهم . وكان يحدث هذا في صيدهم لبعض الحيوانات المائية الصغيرة والسلاحف ، وفي إغارتهم لئلا على بعض الحيوانات في أوكارها وبعض الطيور في أعشاشها ، وفي الحالات التي كانوا ينتفعون فيها بالحفر والمآزق وما إليها من الأمور التي ستتكلم عليها في آخر الفقرة التالية بمناسبة الحديث عن مهارتهم في الصيد .

* * *

ومن هذا كله يتبين أن العنصر الأول من عناصر الصيد ، وهو الآلات أو رأس المال ، كان عند الهنود الحمر بدائياً ساذجاً بعيداً كل البعد عن الكمال . غير أن هذا النقص كان يعوضه كمال العنصرين الآخرين ، وهما الحيوانات ومناهج الصيد .

* * *

٢ - فالحيوانات نفسها كانت في العهد السابق للاستعمار الأوربي غزيرة كل الغزارة في الغابات والأحراش والمرعى والسهول والأشجار والمواء والمياه . وكان الصيد عند الهنود الحمر يجرى على أصناف كثيرة من هذه الحيوانات من أهمها الوعول والغزلان التي كان يعيش منها في سهول أمريكا الشمالية عدة أنواع امتاز منها في نظر الهنود الحمر ثلاث فصائل يسميها الفرنجة الوايتي والإلان والكاريبو Wapiti, Eln, Caribou والدببة التي كانت تصاد على الأخص لفرائها ومخالبها وأسنانها ، وكلاب البحر Loutres ، والسلاحف ، والأسماك ، والنسور التي كانت تصاد على الأخص لريشها ، والحصان الوحشي ، والجاموس الوحشي



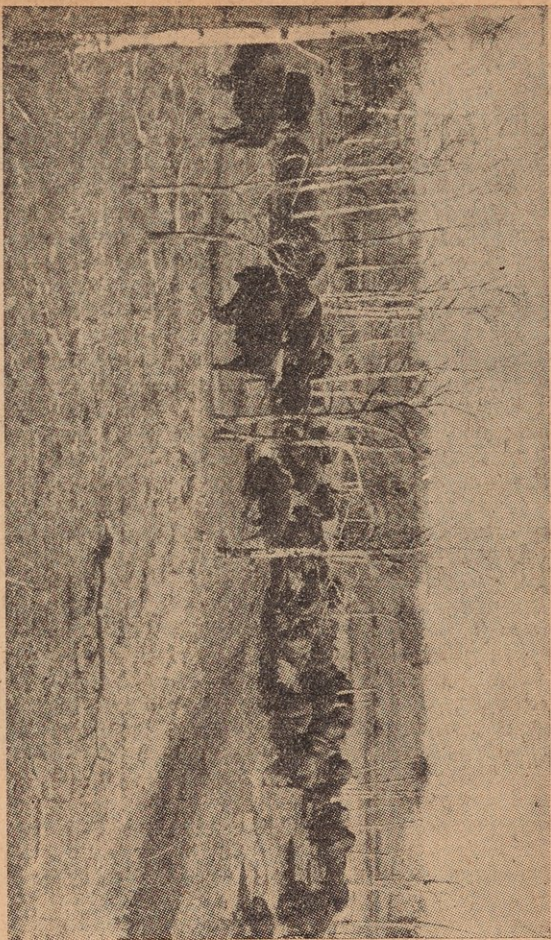
[اللوحة رقم ١٣]

بعض حيوانات الصيد

في الصف الأعلى وعول الوايبي

وفي الصف الثاني على اليمين الدب الأسود وعلى اليسار القهد الأمريكي

وفي الصف الثالث صنف من الأغنام الوحشية *Mouflons*



[اللوحة رقم ١٤]

قطيع من الجاموس الوحشي
Bisons

(انظر فى هذه الحيوانات اللوحتين رقمى ١٣، ١٤ المواجهتين
لهذه الصفحة والصفحة السابقة) .

هذا ، وأهم عمليات الصيد كانت تتجه إلى هذين
الصنفين الأخيرين ، وخاصة الجاموس الوحشى الذى كان
أهم الحيوانات جميعاً لدى الهنود الحمر ، وأغزرها فى هذه
القارة .

* * *

٣- وأما العنصر الثالث ، وهو مناهج الصيد ، فقد بلغ
الهنود الحمر فى شئونه منزلة لم يكده يصل إلى مثلها شعب آخر .
وسنفرد لهذه الناحية الهامة من نواحي الصيد عند الهنود
الحمر الفقرتين التاليتين .

٢

مهارة الهنود الحمر فى أعمال الصيد

حذق الهنود الحمر أعمال الصيد أيما حذق ، وجودوا
مناهجه كل التجويد ، ومهروا فى شئونه مهارة منقطعة

النظير . ويرجع معظم الفضل في مهارتهم هذه إلى عاملين اثنين :

أحدهما - تفرغ الرجال لأعمال الصيد والقتال ، وتركهم جميع الأعمال الأخرى للنساء . وذلك أن أكبر قسط من عبء الأعمال في داخل المنزل وخارجه كان يقع عند هذه العشائر على كاهل الجنس الضعيف . بل إن المرأة لديهم كانت وحدها هي العنصر العامل الكاسب في الأسرة ؛ فكانت تقوم بجانب تربية الأولاد والشئون النسوية الخاصة بجميع ما تتطلبه حياة أسرتها من عمل وتقتضى بذله من مجهود . ولم يكن يستثنى من ذلك إلا نوعان متشابهان من الأعمال اختص بهما الرجال ، وكانا يعدان في نظر هذه العشائر أنبل الأعمال جميعاً وأعظمها منزلة ، وهما الصيد والقتال .

ولما كان التخصص في عمل ما والتفرغ له يؤديان إلى تجويده ، لم يكن غريباً - وقد تفرغ رجال الهنود الحمر لأعمال الصيد وتخصصوا في شئونه - أن يبرزوا في مضماره ويصلوا في مناهجه إلى شأو كبير من المهارة والحدق .

وثانيتها - أن حياتهم كانت متوقفة على الصيد ونتائجه .
 فالحاجة كانت ماسة إلى تنقيح وسائله . ولا يخفى أن الحاجة
 تفتق الحيلة ، وتشحذ القريحة ، وتدل طرق النبوغ .

* * *

وكان الهندي يجمع في أعمال الصيد بين الجرأة والمكر
 أو بين الشجاعة والحيلة .
 فأما الجرأة والشجاعة فكانا يصلان لديه أحياناً إلى حد
 المخاطرة بحياته حيث لا يكون من ذلك بد ، وحيث تعوزه
 وسائل الحيلة ، وتكون قيمة القنيص مغرية ترتخص في
 سبيلها النفوس . فصيده لبعض أنواع الدببة مثلاً ، وخاصة
 الدب السنجابي « L'Ours gris » - الذي كان لديهم من
 أنفس الحيوانات جميعاً ، وكان يتخذ من فروه وأسنانه
 ومخالبه أرقى أدوات الزينة وأغلاها قيمة عند هذه العشائر -
 كان يتمثل في صراع مباشر بين مخلوق ضئيل ووحش جبار .
 فكان الهندي يندفع عارياً نحو الدب - وكان الهنود الحمر
 يباشرون في الغالب أعمال الصيد وهم عراة حتى لا تعوق
 الملابس حركتهم - ويتحرش به ويثيره ، ولا يزال به حتى

يبلغ لديه الغضب والتأهب للانقضاض أقصى غايتها ،
 فيتصب الحيوان ويبسط كلتا يديه للوثوب على الإنسان
 والبطش به . وحينئذ يتقدم الهندي رابط الجأش ، ويهوى
 بخنجره إلى قلب الدب ، ماراً بين ذراعيه المنفرجتين ،
 فيرديه مضرجا بدمه إن أصاب مقتله ، أو يلتقى هو حتفه
 بين أنيابه ومخالبه إن طاشت طعنته .

وفي صيد الجاموس الوحشى كان الهندي يقدم أحياناً
 على أعمال لا تقل جرأة ومخاطرة عما كان يفعله فى صيد
 الدب السنجابى . فمن ذلك أنه كان يتابع قنيصه حتى
 يقرب منه ، فيقفز من ظهر جواده ، ويستقر على ظهر
 الحيوان نفسه ، ويغمد خنجره بين كتفيه .

* * *

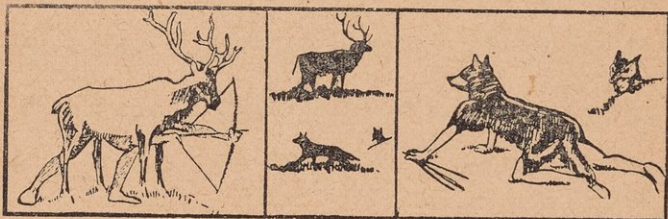
وأما الحيلة والمكر فكانا يقومان لدى الهندي على أمرين :
 أحدهما محاكاة سباع الحيوانات فى المناهج التى تسلكها
 للحصول على قنيصها ؛ وثانيهما الإفادة من غرائز الحيوانات
 التى يحاول صيدها والانتفاع بما تسير عليه فى حياتها من
 أساليب .

فكان يقص آثار الحيوانات التي يريد صيدها ،
ويتعقب علامات أقدامها في الرمل والأرض كما تفعل الذئب .
وكان يختفي ساعات طويلة بدون حراك مترقباً مرور الصيد
للانقضاض عليه كما تفعل الفهود والأمنار . وكان يغوص
في الماء متعقباً الأسماك ومتسرباً إلى مسابحها كما تفعل كلاب
البحر Loutres . وكان يحاكي أصوات الدجاج
والديكة ويقلدها في مشيتها حتى تأنس إليه وتقبل نحوه
كما تفعل الثعالب . وقد لاحظ أن بعض أنواع الوعول إذا
سمع صوت وعل آخر من فصيلته أو غيرها بحث عنه
واندفع نحوه ، فاستغل هذه النزعة ليوفر على نفسه مشقة
البحث عن الوعول وتعبها في مسارحها ؛ فكان يكتفي إذا
خرج لصيدها أن يقف على ربوة ويصرخ محاكياً أصواتها ،
فتخرج الوعول من مختلف الفجاج وتركض شطر الصوت
ساعية إلى حتفها بظلفها ، فيتابع خواره وثغاهه حتى تصبح
على مرعى قوسه ، فيعمل فيها سهامه ويصيب منها ما يشاء .
وكان يذهب أحياناً في هذا التغرير وهذه المحاكاة إلى
أبعد الحدود . فكان يحمل معه أحياناً جلدًا كاملاً للحيوان

الذى يريد صيده ، ويتعقب آثاره حتى يلحح قطيعاً منه عن بعد ،
 فيلبس هذا الجلد ويسير منحنيًا كمن يمشى على أربع مخفياً
 قوسه وسهامه بين يديه ، ويتقدم نحو القطيع محاكياً مشيته ،
 فيبدو لأفراده كأنه واحد منها ، فلا توجس خيفة ولا تريم ،
 ولا ينفك يدنو منها شيئاً فشيئاً حتى تصبح على مرمى قوسه ،
 فينتصب قائماً ، ويسدد إليها سهامه ، ولا تكاد تفيق من
 ذهولها وتتأهب للفرار حتى يكون قد أصاب منها ما شاء الله أن
 يصيب . (انظر اللوحة رقم ١٥ المواجهة لهذه الصفحة)

* * *

ولاحظ الطرق التي تتبعها قطعان الحيوانات وأفرادها في
 مشيها وعدوها وتقريبها وإرخائها وعنقها وخببها وإضباحها
 وجماحها ، والنظم التي تخضع لها في مختلف شؤون حياتها ،
 فاستغل هذه الطرق والنظم وأقام على أسسها مناهج مختلفات
 في الصيد يوائم كل منهج منها نوعاً خاصاً من أنواع الحيوان .
 وكان يوقد النار في السهول والمراعى لتنفر إليها بعض
 الحيوانات ، ويستخدم الأنوار بالليل لتنجذب إليها بعض
 الطيور ، ويستعين بالأضواء الشديدة للتأثير على أعصاب



[اللوحة رقم ١٥]

الهندي وهو مختلف تحت جلد بعض الحيوانات ومحاك
مشيته ليتمكن من الاقتراب من الحيوان وصيده
(انظر آخر ص ٥٥ وأول ٥٦)

الوعول وتنويمها ، ويثير سحباً من الدخان في بعض عمليات الصيد . وكان يستخدم السموم في اللحوم والأعشاب لقتل الحيوان الذى يتناولها أو لإضعافه وشل حركته للتمكن من صيده . وكان يحفر في طريق الحيوانات وهاداً أو يستخدم مغارات طبيعية ويغطيها لتردى فيها في أثناء سيرها ، أو يحصرها في مآزق لا تستطيع الإفلات منها كحصرها بين قمتين أو في نهاية طريق مسدود لا منفذ فيه . . . وهلم جرا .

٣

الأمر الحارقة للعادة في أعمال الصيد

عند الهنود الحمر

ولم تكن مهارة الهنود الحمر مقصورة على هذه الأمور التى يستطيع الإتيان بمثلها ، بل لقد كانوا يأتون أحياناً أموراً خارقة للعادة .

فمن ذلك أن الهنود ، بعد أن كان يظفر بالحصان الوحشى ويأسره في حبالته ، كان يتقدم إليه والحيوان في

أشد حالات ثورته ، فيمسح بيده مسحاً خفيفاً على رأسه وعينييه ومنخريه ، فتحدث المعجزة ، وتنبعث السكينة في نفسه ، فيستحيل بين غمضة عين وانتباهتها من وحش نائر إلى حمل وديع .

وقد حار الباحثون في تأويل هذه الأعمال وما إليها . حتى لقد رأى بعضهم أنها من ضروب السحر أو الإيحاء أو التنويم المغناطيسى وما إلى ذلك من الفنون المتصلة بما وراء الطبيعة أو بالنواحي الخفية من النفس .

فهم يقررون أن هذه الفنون قد بلغت لدى هؤلاء البدائيين مبلغاً كبيراً ، وأنهم كانوا يلجأون إليها في كثير من شؤون حياتهم ؛ وأن كبار سحرتهم كانت لديهم عن فهم أسرار خطيرة ما كانوا يبوحون بها إلا لنفر قليل من صفوة تلاميذهم ومريديهم ؛ وأنهم كانوا يأتون أعمالاً تحير عقول الأوربيين . ففوة تأثيرهم على كثير من الحيوانات — لأن هذه الظاهرة لم تكن في الحقيقة مقصورة على الحصان ، بل كانت تتحقق كذلك في حيوانات أخرى كثيرة — لا بد أن يكون مرجعها إلى السحر أو إلى تدخل قوى خارجة

عن الطبيعة ؛ إذ لا يمكن تأويلها عن طريق آخر .
 وثمة شواهد أخرى كثيرة تدل على أن هؤلاء الهنود
 مزودون ببعض قوى واستعدادات لا نظير لها بين العاديين
 من المتحضرين . فقد ثبت أن كثيراً منهم قد بلغ مبلغاً
 كبيراً في شؤون التنويم المغناطيسى ، فيستطيع بسهولة أن
 ينوم نفسه أو ينوم غيره ، ويتحقق في أثناء ذلك على
 يديه أو يدي وسيطة أمور خارقة للعادة عن طريق الإيحاء
 للغير أو الإيحاء الذاتى . وثبت كذلك أن كثيراً منهم مهيبون
 خير تهيئة لأن يكونوا وسطاء من الطراز الأول في عمليات
 التنويم المغناطيسى .

ولعل هؤلاء البدائيين قد اكتسبوا هذه القوى السحرية
 والمغناطيسية من محبة التعميد Initiation التى كان
 يجتازها كل فرد منهم عند ما يبلغ سنّاً معينة حتى يلتحق
 بالجمعية الدينية ويقف على خفاياها وأسرارها . فالطقوس
 المعقدة التى كان يخضع لها فى أثناء مرحلة التعميد ، وأنواع
 العذاب والآلام التى كان يتحتم عليه أن يذوقها مختاراً ،
 والانقطاع عن متع الحياة ، وملازمة الصيام حتى عن

الكلام أحياناً ، والعبادات المختلفة التي كان لزاماً عليه أدائها في مختلف ساعات الليل والنهار ، وحركات الرقص الديني العنيف ، والأغاني المؤثرة التي كان يردد بها أوراده... كل أولئك كان من شأنه أن يجرده شيئاً فشيئاً من ماديته ، ويوقظ نواحيه الروحية ، ويكسبه قوى خاصة تتجاوب مع بعض الكائنات وظواهر الكون وتؤثر فيها عن طريق الإيحاء والمشاركة الوجدانية وما إليهما . والحيوانات من أشد الكائنات تأثراً بالإيحاء ومن أدقها إحساساً بمظاهر المشاركة الوجدانية . ألم تر إلى الكلب أو القط مثلا كيف ينجذب نحو بعض الغرباء من الأناسي والحيوان ، فيشعر نحوهم بالاطمئنان ؛ في حين ينفر من بعضهم ، ويحس خيالهم الخوف والانزعاج ؛ بدون أن يكون في مظهر هؤلاء ولا أولئك ما يدعو إلى المسلك الذي سلكه خيالهم . فعمل التفاعل بين القوى الروحية والمغناطيسية التي يكتسبها الهندي في أثناء مرحلة التعميد ، وبين الشعور الخفي للحيوان ، وقابليته للتأثر بالإيحاء ، وشدة إحساسه بالمشاركة الوجدانية . . . لعل هذا التفاعل هو الذي يدلل للهندي وسائل التأثير في الحيوان .

ويرى فريق آخر أن الهندي مزود بحواس مشبهة لحواس بعض الحيوانات ولا نظير لها عند المتحضرين من بني الإنسان ؛ وأن هذه الحواس هي التي يستخدمها في إدراك ما يجول بخاطر الحيوان وهي التي تتيح له وسائل التأثير عليه . وذلك أن الحيوانات مزودة بحواس غريبة لا نظير لها عند الإنسان المتحضر . ومن ذلك حاسة الاهتداء Sens de l'orientation التي توجد لدى طائفة كبيرة من الحيوانات والطيور والحشرات كالحصان والحمار والكلب والحمام والنمل والنحل . فهذه الحيوانات لا تضل طريقها إلى منازلها مهما بعدت عنها أو أبعدت . ومن ذلك أيضاً الإحساس ببعض الظواهر الجوية والجيولوجية وتسجيلها قبل حدوثها أو في أثناء حدوثها . فجميع الحيوانات تقريباً تحس الهزات الأرضية قبيل حدوثها .

غير أن هذه الفروق التي يتسع نطاقها بين الحيوان والإنسان المتحضر تتضاءل كل التضاءل أو تنعدم بينه وبين الإنسان البدائي . فمعظم هذه الغرائز والحواس التي يمتاز بها الحيوان عن الإنسان المتحضر ، لها أشباه ونظائر

عند البدائي . فحاسة الاهداء وإدراك الظواهر الجوية والحيولوجية قبل حدوثها ، وقوة الشم . . . كل ذلك يتوافر لدى البدائي في درجة من الحدة والقوة لا تكاد تختلف عن درجته لدى الحيوان . فقد يكون بعض الحواس التي لا نظير لها لدينا هي التي يستخدمها الهندي في إدراك ما يجول بخاطر الحيوان ، وهي التي تتيح له وسائل التأثير عليه . أو قد يكون التجاوب بين بعض الحواس الخفية عند الهندي ونظيرها عند الحيوان هو الذي يؤلف بين نفسيهما ، ويحقق بينهما التفاهم والتعارف والوثام : فالنفوس جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف .

* * *

ولكن يظهر لنا أن هؤلاء وأولئك قد جمع بهم الخيال في تفسير هذه الظواهر ، وأنه من الممكن رجوع كثير منها إلى القوانين العامة التي تخضع لها حياة الحيوان ، كما سيظهر لنا في دراستنا لاستثناس الحصان الوحشي عند الهنود الحمر (انظر صفحات ٧٥-٧٧) . ومهما يكن من شيء بصدد الأساس الذي تقوم عليه هذه الظواهر فهي تدل دلالة واضحة على مبلغ ما وصلت

إليه مهارة الهنود الحمر في علاجهم لأعمال الصيد وما وصل
إليه إدراكهم لطبائع الحيوانات .

* * *

هذا ، وكانت مهارة الهنود الحمر تبدو أوضح ما يكون
في صيد صنفين من الحيوان كانا أهم الحيوانات جميعاً لهذا
الشعب ، وهما الحصان الوحشى والجاموس الوحشى .
ولذلك سنفرد لهما البحوث الباقية من هذا الباب .

٤

صيد الحصان الوحشى عند الهنود الحمر

كانت عملية صيد الحصان الوحشى عملية فردية يعالجها
شخص واحد ، ولا تقتضى تعاون جماعة كما كان الشأن
في بعض الحيوانات الأخرى كالجاموس الوحشى وما إليه .
فكان الصائد^(١) يخرج وحده ممتطياً صهوة جواد مستأنس ؛

(١) الطريقة التى سندكرها كانت متبعة على الأخص عند عشائر الشمين
Cheyennes فى جنوب ميسورى. وقد لاحظها العلامة كاتلان « Catlin »
الذى يعد من أعمق الباحثين فى حياة الهنود الحمر وأدقهم ملاحظة لشؤونهم.

ويتعمد أن يخرج عارياً حتى لا تعوق الملابسُ حركته .
وما كان يحمل معه من آلات الصيد وحاجات الزاد إلا
حباله تتدلى على ذراعه الأيسر (وكانت تصفر في العادة من
ليف أو جلد وتنتهى بطوق معدني أو بأنشوطة يمر فيها الطرف
الآخر للحبل ، فيتكون في آخره طوق يلتف حول عنق القنيص ،
ويتسع أو يضيق حسب الحاجة . - انظر اللوحة رقم ١٢
بصفحة ٤٦) ، وسوياً في يده اليمنى ، وخرجاً صغيراً فوق كتفه
يحفظ فيه كمية من جريش البن هي كل زاده في سفره الطويل
الذي قد يستغرق عدة أيام ؛ فكان يتبلغ بهذا البن ويستحلبه
من حين لآخر كلما أحس وطأة الجوع .

يبحث الصائد عن آثار قطع للخيل ، ويقص هذه
الآثار حتى يقرب من القطيع ، فيركض فرسه مندفعاً
نحوه حتى يتوسطه أو يكاد ، فيضطرب شمل القطيع
ويسوده الذعر وتشمله الفوضى . وفي أثناء ذلك يكون الهندي
قد ألقى نظرات فاحصة خاطفة على مختلف أفرادهِ ووقع
اختياره على واحد منها يتوافر فيه ما يروقه من صفات .
وحينئذ يترجل الصائد ، ويترك فرسه المستأنس يسير

وراءه ، ويأخذ في تعقب القطيع ، متجها دائماً شطر الحصان الذي اختاره ، فينفر القطيع منه في صورة لا تتم على شدة الخوف ؛ إذ يحس أفراده أن سرعة من يتعقبها ليست شيئاً مذكوراً بجانب سرعتها ، وأنه لذلك لن يستطيع سبيلاً إلى دركها ؛ فتقصد في خبيها . ، وتقف من حين لآخر محدقة في هذا المخلوق الضئيل البطيء الذي يتعقبها ، ويستهيها في ركضها ووقوفها نشاط المرح واللعب وحب الاستطلاع والاستخفاف بالحصم والسخرية منه أكثر مما يستنفرها الخوف أو يثيرها الانزعاج .

ولكن الهندي لا يأبه بما توجهه إليه من سخرية أو ازدراء ، ويتابع سيره بخطوات منظمة على وتيرة واحدة ، متوسطة السرعة بين الهوينا والعدو . وكلما ألتقى بالقطيع اتجه شطر الحصان الذي وقع عليه اختياره ووجه إليه نظرات نافذة مريبة . فلا يلبث هذا الحصان ، بعد عدة اللقاءات من هذا القبيل ، أن تلعب بنفسه المخاوف ، ويوقن أنه مقصود بالذات ، فيتملكه الذعر ، ويجفل ثم نبت عن قطيعه ، ويعدو بأقصى سرعتة ، ويتابع عدوه

شوطاً بعيداً ، ثم يقف ظاناً أنه قد بعد عن الخطر ؛ ولكنه لا يكاد يلتفت وراءه حتى يلمح الهندي خلفه يسير بخطواته الهادئة الوئيدة . فينفر الحصان ويزيد من سرعة عدوه ومن مسافة شوطه ، حتى يوقن أنه قد أصبح من المستحيل على الإنسان أن يدركه ؛ ويرجع بصره وراءه رجع المزهو بانتصاره ، فينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير ، إذ يلمح الهندي قاب قوسين منه أو أدنى . هذا ، والهندي يمشى على الأرض هوناً ، لا يغير شيئاً في خطوته الوئيدة ، ولا يزيد في سرعته التي لا تذكر بجانب سرعة الحصان .

فأى سحر هذا الذي يستخدمه الهندي حتى يقطع بمشيته الهادئة من المسافات ما يقطعه الحصان بعدوه السريع مع اتحاد الزمن الذي يستغرقه المتسابقان ؟

لا يستخدم الهندي في ذلك شيئاً من السحر ، ولكنه يستخدم العلم بطبائع الحيوان ، ويفيد من خبرته وملاحظته للأساليب الحصان في عدوه . وذلك أن كثيراً من كبار الحيوانات الثديية كالخيل والوعول وما إليهما لا تسير في

عدوها على خط مستقيم ، ولكنها ترسم أقواساً وأنصاف
دوائر تتصل حافاتهما بهذا الخط . فهي في كل شوط من
أشواطها تبدأ من نقطة في هذا الخط وتنتهي بنقطة أخرى
عليه ؛ ولكنها تسلك أبعد الطرق لقطع المسافة بين هاتين
النقطتين ؛ فتقطعها في خط منحن واسع ترسمه في الغالب
على يسار الخط المستقيم . فالهندي يعرف ذلك ، ويعرف
أن حصانه سينتهي به المطاف في كل شوط من أشواطه إلى
الخط المستقيم الذي بدأ عدوه منه . فلا يكبد نفسه مشقة
الجرى وراء الحصان ولا متابعتها في خطوطه المنحنيات ؛
وإنما يسير بخطواته المترنة الهادئة في الخط المستقيم ، موقناً
أنه على هذا الخط سيجتمع الشيطان ، وسيلتقي لا محالة
بقنيصه . فالمسافة التي يقطعها الهندي في سيره المستقيم
للوصول إلى نقطة ما ليست شيئاً مذكوراً بجانب المسافة
التي يقطعها الحصان في سيره المنحرف للوصول إلى النقطة
نفسها . والفرق بين المسافتين يعادل الفرق بين سرعتين .
فلا يكاد الحصان يصل إلى هذه النقطة بعدوه السريع
حتى يكون الهندي قد بلغها بخطواته الوئيدة .

ومن هنا يتبين السبب الذى من أجله يؤثر الهندى فى
الغالب أن يعالج عمليات هذا الصيد راجلاً ويترك فرسه
المستأنس يسير وراءه ؛ لأنه يخشى إن عاجلها ركباً أن
يستسلم فرسه المستأنس لطبيعته ومناهجه الفطرية فى العدو ،
ويندفع فى متابعة الحصان الوحشى فى سيره المنحرف ،
فيخفق فى إدراكه ، لاتحاد المسافة التى يقطعها كلاهما
مع تفوق الوحشى على المستأنس فى السرعة لحالة الدعر
المستولية عليه من جهة وعدم وجود ثقل فوق ظهره من
جهة أخرى .

وبعد عدة ساعات يدب الضعف والوهن إلى الحصان
الوحشى ، ويتبين الهندى ذلك من كثرة وقفاته وتتابعها
وقصر المدة التى يستغرقها كل شوط من أشواطه . وحينئذ
يحث الهندى خطواته حثاً خفيفاً ، فى حين تشتد مظاهر
الإعياء على الحصان شيئاً فشيئاً ، فتتناقص مسافة كل
شوط من أشواطه ، حتى لا تتجاوز بضع عشرات من
الأمطار ، وتطول مدة وقوفه للراحة بين كل وثبة وأخرى .
ويظل الهندى سائراً على وتيرته ، مع حث خفيف

لخطواته في هذه المرحلة ، وتتناقص المسافة التي تفصله عن الحصان في كل وقفة من وقفاته شيئاً فشيئاً حتى تصبح بضعة أمتار .

وحينئذ تتدافع الحوادث وتسرع نحو نهايتها ؛ فيطول توقف الحصان بين كل شوط وآخر ، ويرتفع قبعه ونحيطه^(١) ، والهندي كالظل يلاحقه غير تارك له فرصة للراحة ، ولا وسيلة للاستجمام . فيجفل الحصان جفلة الأخيرة ، ولكن لا تطاوعه في هذه المرة على العدو ساقاه المرهقتان ، فيقف فجأة حيث يكون الهندي على بضعة أمتار منه .

فيبطئ الهندي في سيره ، ويتقدم نحو الحصان بخطوات متزنة جريئة ، ثم يتناول حبالته ، ويمسك بطرفها المرسل في يده ، ويقذف طرفها المعقود نحو قنيصه في رمية سريعة ماهرة لا تخفق ولا تطيش ، فإذا طوق الحباله حول رقبة الحصان ، وإذا بقطر هذا الطوق يضيق شيئاً

(١) القبع صوت يردده الفرس من منخرينه إلى الحلق ويكون من نفاذه من شيء يتقيه ، والنحيط صوت الفرس من الإعياء ، ويكون من الصدر إلى الحلق .

فشيئاً حتى ليكاد يعصر حلقة عصره . (انظر اللوحة رقم ١٢ بصفحة ٤٦) .

ولعل الهنود الحمر قد اقتبسوا هذه الطريقة في متابعة قنيصهم عن بعض الحيوانات المفترسة وخاصة الدب والذئب . فالدب مثلاً يتعقب فريسته بخطوات متثاقلة ، ولكنها منظمة ، تسير على وتيرة واحدة ، لا تنقص سرعتها ولا تزيد ؛ بينما تقفز الفريسة مهتاجة بخطوات سريعة لا تذكر بجانبها خطوات الدب . ولكنها لا تلبث بعد بضع ساعات أن تنهت قواها ، وتضعف حركتها . ويكون الدب في أثناء ذلك قد قطع بخطواته الوئيدة المرحلة نفسها التي قطعها فريسته بخطواتها المهتاجة السريعة . وذلك لأنه يسير على خط مستقيم ؛ بينما تسير هي في أنصاف دوائر تتصل حافاتهما بهذا الخط ؛ فلا يفرقان إلا ليلتقيا ، ثم يفرقان ويلتقيان مرة أخرى . . . وهكذا دواليك ، حتى يلتقيا في وقت تكون فيه الفريسة قد نالها الوهن ، وأخذ منها الإعياء كل مأخذ ، لطول المسافات التي قطعها في هذه الأقواس ؛ في حين يكون الدب لا يزال موفور القوى لقصر المسافة

التي قطعها ، ولسيره بخطوات وثيدة مريجة . وما هو إلا أن يثب عليها وثبة واحدة حتى تسلمها المنون إلى ذراعيه الجبارتين .

* * *

ولا تكاد الحباله تأخذ برقبة الحصان حتى تثور ثائرته ، فيرتفع نخيره ، وتصطك أسنانه ، وينتفخ منخراه ، وتبرز عيناه ، وتقذف بالشرر ، ويضرب بقوائمه ضرب المذبوح في مختلف الجهات .

ولكن الهندي لا يأبه بهذا كله ، ويتقدم إليه رابط الجأش ، ويمسح بيده على بعض أجزاء جسمه ، فيسُدُّ له الحيوان ، ويتم له إخضاعه ، على الوجه الذي بيناه في الفقرة السابقة (انظر صفحات ٥٩ - ٦٥) .

وفي فجر اليوم التالي ينقلب الهندي إلى أهله فرحاً بما أفاء الله عليه من غنيمة ، ممتطياً صهوة جواده الحديد الذي تم استثناسه في بضع ساعات ، ويقود وراءه جواده القديم .

استئناس الحصان عند الهنود الحمر

ليس من بين الأعمال التي يأتيها الهندي في صيده ما هو أدعى للدهشة ، وأعسر على الفهم ، وأدنى أن يكون من الأمور الخارقة للعادة من موقفه الأخير في صيد الحيوان الوحشي ؛ إذ يتم له استئناسه بمجرد الاقتراب منه وإمرار يده على بعض أجزاء جسمه . فجميع الأعمال الأخرى ، على ما فيها من حذق ومهارة ، قائمة على ما أفاده الهنود الحمر من تجاربهم وخبرتهم بطبائع الحيوان ، أو على محاكاتهم لما يتخذه بعض السباع من مناهج في الحصول على قنيصها . أما أن يتقدم الهندي نحو حيوان متوحش وهو في عنفوان ثورته واشد حالات ذعره وهياجه ، فيلمسه بيده لمساً خفيفاً ، فإذا هو في لمح البصر هادئ مطمئن مستأنس وديع ، فهذا ما تحار في تأويله العقول . ولذلك لم يسع بعض الباحثين ، كما ذكرنا ذلك فيما سبق (انظر صفحات ٦٠ - ٦٤) ، إلا أن يرى في ذلك ضرباً من ضروب السحر أو الإيحاء أو التنويم المغناطيسي وما

إلى ذلك ، أو نتيجة لأعمال حواس مزود بها الهندي وليس لها نظير عند أخيه المتحضر من بني الإنسان .
ولكن يظهر لنا أن السبب في هذه الظاهرة قد يكون أيسر من هذا كله . فقد يكون السبب فيها أن توحش الحصان كان طارئاً في هذه القارة ، وأن قطعان الحمول التي كانت تهيم في سهولها منحدره في الأصل من حيوانات كانت مستأنسة ومذلة للإنسان .

وفي الحق إن قصة هذا الحيوان بهذه القارة لتؤيد هذا التفسير كل التأييد . فمن المسلم به أن هذا الحيوان لم يكن معروفاً للسكان الأصليين في العصر الذي دخل فيه الأوروبيون هذه القارة . ويدل على ذلك أن قدماء المكتشفين والغزاة من الأوربيين، أمثال فرنسوا بيزار *François Pizarre* الذي أخضع عشائر الإنكا *Incas* وهم سكان بيرو والأصليون^(١)، وفرناند كورتز *Fernand Cortez* الذي أخضع عشائر الأزتك *Azteques*^(٢)

(١) رجالة أسباني (١٤٧٥ - ١٥٤١) وقد غزا شعوب الإنكا بمنطقة بيرو (انظر آخر ص ١٦) وأخضعها لإسبانيا .

(٢) ضابط أسباني (١٤٨٥ - ١٥٤٧) وقد غزا شعوب الأزتك بالمكسيك (انظر أول ص ١٧) وأخضعها لإسبانيا .

وهم سكان المكسيك الأصليون، لم يعثروا على هذا الحيوان، بل لم يعثروا على أى أثر أو صورة له فى أية منطقة من المناطق الواسعة التى كان يسكنها قبائل الإنكا بييرو وقبائل الأرتك بالمكسيك ، مع أن هذه القبائل كانت من أرقى سكان أمريكا الأصليين مدنية وأعرقتها حضارة . بل إن أفراد هذه العشائر كان يملكهم الفزع عند رؤيتهم الحصان مع الأوربيين، وكانت نفوسهم تطير شعاعاً عند سماعهم محمته وصهيله .

ومن المسلم به كذلك أنه قد أفلت من جيش كورتز Cortez فى أثناء تفهقر سريع فجائى اضطر إليه فى غزوة من غزواته ببلاد المكسيك نحو خمسين فرساً ، وأن هذه الأفراس قد هامت على وجوهها فى سهول هذه القارة ، وتألف من سلالاتها فى نحو نصف قرن هذا العدد الكبير من قطعان الخيول ، التى أصبحت مع تقادم عهدها بالاستثناس شبه متوحشة أو فى حالة بين التوحش والاستثناس ، وأن هذه الخيول هى التى كان يتعقبها الهنود الحمر بالصيد ، ويردون ما يصيدونه منها إلى حالة الاستثناس .

وعلى ضوء ذلك يمكن أن نعلل السهولة التي كان ينتقل بها الحصان من حالة الوحشية إلى حالة الاستئناس ،
وندرك العوامل التاريخية الخفية التي كانت تذلل للهندي وسائل النجاح في حركته الجريئة ، إذ كان — كما قلنا — يتقدم نحو الحصان الذي صاده وهو في أشد حالات ثورته ، فيمسح عليه بيده مسحاً خفيفاً ، فإذا هو حمّل مستأنس وديع . وذلك أننا بصدد حيوانات طراً عليها التوحش ، لأنها منحدره من أصول كانت مستأنسة ومذلة للإنسان . ولذلك كان ينتقل إليها عن طريق الوراثة النوعية « Atavisme » الميل إلى الاستئناس الذي كان عند آباؤها الأولين . ولكن هذا الميل كان يظل كامناً لديها إلى أن تتاح له فرصة للظهور ، ويتحقق ما يثيره ، شأنه في ذلك شأن جميع الصفات الوراثية الكامنة . ولعل ملاصقة الهندي للحيوان ومسحه على جسمه . . . لعل كل ذلك كان الفرصة المواتية لإثارة هذا الميل وانبعائه من مكمنه ؛ فتعاود الحيوان حينئذ على حين غرة نزعتة القديمة إلى معاشره الإنسان والخضوع له ، فيسلم نفسه إليه .

الفروسية عند الهنود الحمر

وهناك مشكلة أخرى خاصة بمهارة الهنود الحمر في شئون الفروسية . وذلك أن السكان الأصليين لقارة أمريكا ، وخاصة الهنود الحمر بعد أن عرفوا الحصان ، قد ألفوه بسرعة وألفوا ركوبه واستخدامه ، وأصبحوا في أمد وجيز جداً من أمهر شعوب الأرض قاطبة في شئون الفروسية وركوب الخيل .

مع أنه من المقرر أن مهارة الأفراد في شئون الفروسية وركوب الخيل . . . وما إلى ذلك ترجع في الغالب إلى أمور وراثية . فإذا كان العرب والقوزاق مثلاً قد بلغوا في هذه الشئون مبلغاً كبيراً ، فإن الفضل في هذا ليرجع إلى الاستعدادات الفطرية التي تنتقل إليهم بطريق الوراثة عن أجدادهم الذين تمرسوا أمداً طويلاً في أعمال الفروسية واضطرتهم مقتضيات حياتهم ونظمهم الحربية وعلاقاتهم

بغيرهم من الشعوب إلى تجويد فنونها . ولا أدل على ذلك من أن العشائر الإفريقية التي لم يعرف أجدادها الفروسية ولم ينتشر لديها الحصان إلا منذ أمد حديث لا تزال متخلفة عن غيرها في هذا المضمار .

فكيف أتيح إذن للهنود الحمر ، الذين كانت الطبقات القريبة من آبائهم تجهل الحصان نفسه كل الجهل ، أن يكتسبوا هذه المهارة العجيبة في ركوبه ويصبحوا بين عشية وضحاها مضرب الأمثال في الفروسية ؛ مع أنه من المقرر كما قلنا أن هذا النوع من المهارة يرجع في الأرجح إلى الوراثة ؟

ألا يدل ذلك على أن الهنود الحمر كانوا مزودين باستعداد فطري لهذا النوع من المهارة ، وأن هذا الاستعداد قد انتقل إليهم بطريق الوراثة ، لا عن الطبقات القريبة من آبائهم التي ثبت أنها كانت تجهل الحصان ، بل عن طبقات بعيدة من آبائهم الأولين ؟ أو بعبارة أخرى : أليس في هذا دليل على أن الحصان ، وإن كان مجهولاً عند الطبقات القريبة من آبائهم ، لا بد أنه كان معروفاً

في هذه القارة ومنتشراً ركوبه واستخدامه بين أهلها في عصر سحيق في القدم ، ثم انقرض لسبب ما ، ولكن بقي الميل إلى أعمال الفروسية والاستعداد للمهارة فيها متأصلين في دم هذا الشعب ينتقلان من الحلف إلى السلف بطريق الوراثة في صورة نزعتين كامنتين ، حتى أتيح لهما الظهور حينما ظهر الحصان مرة ثانية في هذه القارة ، وتمكن أفراد هذا الشعب من استخدامه .

يذهب بعضهم إلى عدم قبول هذا الفرض ، ويقرر أنه من الممكن أن يمهر شعب ما في فن ما في أمد وجيز بدون أن يكون لديه في هذا الفن أي استعداد وراثي ، وأنه من الممكن كذلك أن يختلف شعبان اختلافاً كبيراً في مبلغ إجادتهما لفن ما مع اتحادهما في التجرد من الاستعداد الوراثي لهذا الفن . ويستدل هذا الفريق على صحة مذهبه بمهارة الهنود الحمر أنفسهم في استخدام الأسلحة النارية . فقد بلغوا في هذا الفن في أمد وجيز درجة منقطعة النظير استوقفت نظر الأوربيين وكانت موضع دهشهم وإعجابهم معاً . على حين أن كثيراً من شعوب أواسط أفريقيا لم تصل

بعد إلى عشر معشار ما وصل إليه الهنود الحمر في هذا المضمار ، بل لا تزال خاملة فيه كل الجمول . مع أن الهنود الحمر لا يمتازون عن هؤلاء في شيء فيما يتعلق بالناحية الوراثية . فأباؤهم الأولون ، كأباء هؤلاء ، ما كانوا يعرفون شيئاً عن هذا النوع من السلاح الذي لم يظهر في الإنسانية إلا منذ أمد حديث .

وبعضهم يقبل الفرض السابق ، وهو أن الآباء الأولين للهنود الحمر قد أتيح لهم في اعصور قديمة ممارسة الفروسية والنبوغ فيها ، بل يرى أنه لا مناص من الأخذ به ، وأن التاريخ الطبيعي للحصان يؤيده كل التأييد . وذلك أن تاريخ هذا الحيوان قد كشف لنا عن حقائق خطيرة تقطع بصحة هذا الفرض . فقد أصبح من المقرر في هذا التاريخ — وفي ضوء ما كشفه الباحثون من حفريات — أنه قد عاش على ظهر الأرض ، قبل أن تظهر الخيل المعروفة الآن ، فصيلة حيوانية تشبهها في عموميات تركيبها وتختلف عنها في كثير من التفاصيل : ككبر رأسها ، وانتصاب عرفها (وهو الشعر النابت في محذب الرقبة ؛ وهذا الشعر غير

منتصب في خيولنا الحالية ، بل مسترخ ومدلى في خصائل) ،
 وأن هذه الفصيلة هي التي انشعب منها الحصان الحالى
 بعد أن اجتاز عدة تطورات ، وأن أمريكا كانت الموطن
 الأصلي لهذه الفصيلة القديمة ، ومنها انتشرت في مختلف
 أنحاء المعمورة .

وذلك أن أمريكا كانت تتصل بآسيا عن طريق برزخ
 بهرنج (بوغاز بهرنج الآن) ؛ بل يظن أنها كانت تتصل
 بها من عدة نقط أخرى كذلك . وتدل الحفريات السابق
 ذكرها على أن هذه الفصيلة الحيوانية قد تسربت من هذه
 المنافذ إلى سيبيريا أولا ، ثم تسربت من سيبيريا إلى أوروبا ،
 ومن أوروبا انتشرت في مختلف أنحاء الدنيا القديمة . وقد
 بقيت من هذه الفصيلة بعض رواسب في صنف من الخيول
 المستأنسة بالنرويج وأيسلندا . وكان الرأى السائد حتى أواخر
 القرن التاسع عشر أنه لا يوجد من رواسب هذه الفصيلة
 غير هذا الصنف . ولكن في سنة ١٨٨١ عثر الرحالة
 برجوالسكى « Prjewalsky » (١) ، وهو يجوس مناطق

(١) نقولا برجوالسكى ضابط ورحالة روسى قام بعدة رحلات هامة
 واكتشافات قيمة في آسيا الوسطى ، ولد سنة ١٨٣٩ وتوفى سنة ١٨٨٨ .

منغوليا ، على قطعان من الخيول الوحشية تشبه من جميع الوجوه هذه الفصيلة القديمة .

أما في أمريكا فقد انقرضت هذه الفصيلة كل الانقراض بدون أن تترك أية خلفه حية ، مع أنها كانت موطنها الأصلي . فالخيول الوحشية التي كانت منتشرة في سهول أمريكا بعد دخول الأوربيين ، والتي كان يتعقبها الهنود الحمر بالصيد ، لم تكن منحدره من هذه الفصيلة مباشرة ، وإنما كانت تمثل الحصان في آخر مرحلة من مراحل تطوره ، وتحمل أدلة كثيرة على انحدارها في صورة مباشرة من الخيول الإسبانية الداجنة العربية الأصل . فلا بد أنها سلالة الخيول التي أفلتت من غزاة الإسبان وهامت على وجوهها في هذه السهول في فجر الاستعمار الأوربي .

فمن هذه الحقائق يمكن أن نستخلص أن هذا الحيوان قد عاش في موطنه الأصلي وهو أمريكا أمداً طويلاً ؛ ثم انقرض من هذه القارة انقراضاً تاماً لأسباب لم تعرف بعد . وتم انقراضه منذ أمد سحيق في القدم لا يعرف تاريخه على وجه اليقين ؛ ولكن يمكن الجزم أنه سابق

على ظهور الحضارة الأزتكية ، بدليل أننا لم نعثر حتى على صورة لهذا الحيوان في أى أثر من آثار هذه الحضارة ، مع كثرة هذه الآثار وتنوعها وتمثيلها لمختلف المراحل التي اجتازتها عشائر الأزتک Aztèques واجتازتها حضارتهم حتى دخول الأوربيين بلاد المكسيك . ثم أتيح لهذا الحيوان أن يظهر في هذه القارة مرة ثانية بعد الاستعمار الأوربي متفرعاً من الخيول التي جلبها معهم الأوربيون .

ففي أثناء المرحلة الطويلة التي قضاها هذا الحيوان في هذه القارة قبل انقراضه منها ، لا بد أن يكون السكان الأصليون قد استأنسوه ، ومارسوا ركوبه ، وقطعوا في فنون الفروسية شوطاً بعيداً . وقد بقيت هذه المهارة في دمهم بعد انقراض الحيوان نفسه تنتقل بطريق الوراثة من السلف إلى الخلف في صورة استعداد كامن ، إلى أن أتيح لها الظهور حينما ظهر الحصان مرة ثانية في هذه القارة ، وتمكن أفراد هذا الشعب من استخدامه . ومن ثم لم يكف يظهر هذا الحيوان في سهول أمريكا بعد الاستعمار الأوربي ويعرفه الهنود الحمر حتى ألفوه بسرعة وألفوا ركوبه واستخدامه ،

وأصبحوا في أمد وجيز من أمهر شعوب الأرض قاطبة في
شئون الفروسية وركوب الخيل .

وقد يكون عهد الهنود الحمر بهذا الحيوان قبل ظهوره
مع المستعمرين الأوربيين غير سحيق في القدم إلى الحد
الذي وصفناه . وذلك أن بعض المؤرخين يذهب إلى أن
الهنود الحمر دخلاء في هذه البلاد ، وأنهم قد نزحوا إليها
من المناطق الشمالية ، وأن نزوحهم هذا قد حدث في
عصور غير بعيدة كل البعد . فمن المحتمل أن تكون البلاد
التي نزحوا منها كان منتشراً فيها الحصان ، أو كان أهلها
قريبى عهد بانقراضه . ولعل هذا هو السبب في أن الهنود
الحمر بالذات كان استعدادهم للفروسية أقوى من استعداد
الشعوب الأمريكية الأخرى ، وأنهم قد بلغوا في هذا المضمار
شأواً لم يصل إلى مثله شعب ما من هذه الشعوب .

* * *

هذا ، وقد ظل الهنود الحمر يصيدون هذا الحيوان
ويستأنسونه على النحو الذي وصفناه ، حتى كثر الأوربيون
النازحون إلى هذه القارة ، وكثرت معهم الحيلول المستأنسة ،

فلم يجد حينئذ كثير من الهنود حاجة لأن يجشموا أنفسهم مشقة تعقبه واستثناسه ، وآثروا السطو على حظائر الأوربيين ، ونهبه منها مستأنساً عتيداً . وكان هذا عاملاً من عوامل النزاع الذى ظل ناشباً بينهم وبين الأوربيين أمداً غير قصير .

٧

الجاموس الوحشى عند الهنود الحمر

أهمية هذا الحيوان فى حياتهم وطرائق تعقبه

أطلق الأوربيون على هذا الحيوان اسم الثور الوحشى Bison ، ولكن شاع على ألسنتهم تسميته بالجاموس Buffalo . وقد نجد بعض وجوه الشبه بينه وبين الثور . ولكنه يختلف عن الجاموس اختلافاً كبيراً فى جميع مظاهر جسمه : فى حجمه وطوله ، وقرونه الصغيرة المقوسة ، ورأسه الصغير المفرطح ، وجهته المتقلصة المنزوية ، وكتفه العريضة الحدباء ، وذيله الصغير ، وشعره الكثيف المتلبد

كلبد الأسد حول عنقه وكتفه وساقيه الأماميتين ؛ ولا يكاد يجمعه بالجاموس إلا أنه حيوان مجتر من ذوات الظلف (انظر اللوحة رقم ١٤ بصفحة ٥٠) .

وعلى هذا الحيوان كانت تتوقف حياة الهنود الحمر . فقد كان لديهم أهم مادة للغذاء والكساء والمسكن والأثاث والماعون والسلاح وسائر مرافق الحياة .

فمن لحمه كان يتألف أهم قسم من غذائهم الحيواني . وكانوا يأكلونه طازجاً سليقاً وشواءً وحنيذاً ، ويحفظونه قديداً وشيقاً^(١) . ومن جلده كانوا يصنعون بيوتهم (الخيام) (انظر اللوحة رقم ٦ بصفحة ٢٤) ويعملون الحفائب والأوعية والفرش والأردية والمعاطف والمناطق والأغطية والأحزمة والأحذية والحفاف والتمارين وسروج الدواب والحبال وأشراك الصيد والسفن والقوارب وكنانات السهام وأغماد السيوف وهلم جرا . — ومن عظامه كانوا يتخذون معظم الآلات التي يستخدمونها في أعمالهم ويصنعون الحجارف

(١) حنذ الشاة شواها وجعل فوقها حجارة محمأة لنضعها فهي حنيد ، ومنه قوله تعالى : « وجاء بعجل حنيد » . ولحم قديد مشرح طولاً ومحفوظ ، والشويق اللحم يغلى بإغلاء ثم يقدد ويحمل في الأسفار وهو أبقى قديد يكون ، والشقيقة مثله ، وفي الحديث أنه أتى بوشيقة يابسة من لحم صيد .

والأمشاط والمكاشط والصفارات والسكاكين والحناجر وریش السهام
ونصالها وإبر الحياطة وأدوات الزينة وهياكل يستخدمونها في
طقوسهم الدينية . . . وما إلى ذلك . - ومن قرونه كانوا
يصنعون الأكواب والكؤوس وأنواعاً مختلفة من الآنية والأبواق
والزمارات ؛ وكانوا يضعون جمجمة الحيوان مع قرونه فوق
رؤسهم للتمثل به في أثناء أدائهم لبعض الشعائر الدينية
أو بغلاجهم للعمليات السحرية ؛ وكانوا يرمزون بالقرون
إلى الحيوان منمنمة . الحيوان عروقه وأوتاره وأربطته وأمعائه
كانوا يتخذون منها أنواعاً مختلفة من الخبال والسياط . - ومن
أظلافه كانوا يتخذون الصمغ والمواد الدهنية والدهان . . .
وما إلى ذلك . - ومن شعره كانوا يتخذون بعض مطاهر الزينة
ومواد الحشو والتنجيد . - ومن مخه كانوا يستخرجون مادة
لدبغ الجلود . - ومن ذيله كانوا يتخذون مذبات (منشآت)
وبعض أدوات الزينة . - ومن مثانته كانوا يتخذون أوعية
ومواعين . - وحتى دهنه وروثه المجفف كانوا يستخدمونها
للقود . وبالجمل ما كانوا يغادرون أى جزء من أجزاء هذا
الحيوان ولا أى عنصر من عناصره إلا استخدموه في

مرفق أو أكثر من مرافق حياتهم . فلا غرابة إذن أن اتخذه رمزاً للألوهية والقوة ، وخصوه بمختلف أنواع التقديس .

* * *

وكانت قطعان هذا الحيوان تستأثر بأكبر حيز من هذه القارة ويكاد مثار بقعها يحجب ضوء الشمس ، حتى إن قطعاً واحداً منها قد شغل في أثناء هجرته مساحة عرضها سبعون ألف متر ، وبلغ طوله أن أنعامه ظلت تتدافع بعضها إثر بعض في سير سريع مطرد مدة خمسة أيام متواليات (انظر اللوحة رقم ١٤ بصفحة ٥٠) .

ولغزارة هذا الحيوان وعدم وجود مراعى واسعة تكفيه مدة طويلة كان لا ينفك يهاجر في طلب الكلاء من موطن لآخر . ولما كانت حياة الهنود الحمر متوقفة عليه كانوا يرحلون معه أينما رحل ويحلون حيثما حل ، ولا يفتأون في حله وترحاله يشنون عليه غارات الصيد ، ويتزودون منه بما يسد حاجتهم للغذاء والكساء ومرافق الحياة .

وكان صيدهم لهذا الحيوان ينتهى دائماً بالإجهاز عليه ، فلم يحاولوا مطلقاً صيده حياً ولا استئناسه ، كما كانوا يفعلون

مع الحصان الوحشى . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى سهولة حصولهم عليه ، وغزارته فى حالته الطبيعية ، حتى إن الحاجة لا تدعوا إلى إنمائه بالاستثناس . هذا إلى أنه كان كامل التوحش غير مهياً للدجون ، على عكس ما كان عليه الحصان الوحشى .

وكان أهم مواسم صيده قبيل الشتاء ، حيث يندفع لطلب الكلاء مهاجراً صوب الجنوب فى قطعان يصعد عدد بعضها إلى عدة ملايين ، ويهبط بعضها إلى بضعة آلاف ؛ ويخترق السهول فى طرائق معينة معروفة تسمى « مسالك الجاموس » .

فى هذا الفصل على الأخص كانت كل عشيرة من عشائر الهنود الأحمر تبعث روادها يجوسون خلال هذه المسالك ، ثم يقفلون بأنباء دقيقة عن المهتقر الأنواع والسيارات ، فيستحلف العشيرة الفرحة بهذه البشرى حتى ليكاد أفرادها يخرجون عن وقارهم ، ويسلمون أنفسهم لرقصات دينية عنيفة وغناء صاخب ، ثم يبتهلون إلى آلهتهم أن تجعل التوفيق رائدهم فى صيدهم وتبى لهم من أمرهم رشداً .

وبعد أن يصبغ الرجال جسومهم بألوان خاصة جرت بها التقاليد في حفلات الصيد ويعدوا أسلحتهم وخيولهم ، يأخذون طريقهم نحو القطيع ، يتبعهم الأولاد والنساء . وكانوا يحرصون على التخفيف عن خيولهم بقدر المستطاع في المرحلة الأولى وهي مرحلة السفر للحاق بالقطيع حتى لا ينالها التعب فتعجز في أثناء الصيد نفسه عن بذل ما ينبغي بذله من مجهود . ولذلك كانوا يؤثرون في أثناء هذه المرحلة أن يجنبوها^(١) ويسيروا رجالا بجوارها ، ولا يمتطوها إلا حيث يشرفون على القطيع ويشرعون في عمليات الصيد . وهذا هو عكس ما كانوا يفعلون في صيدهم للحصان الوحشى : فقد كانوا في صيد الحصان الوحشى يقطعون المرحلة الأولى وهي مرحلة السفر للحاق بالقطيع على ظهور خيولهم ثم يعالجون عمليات الصيد نفسها رجالا .

وكانت دوافع ترحلهم في الحالة الأولى تختلف كل الاختلاف عنها في الحالة الأخرى . ففي صيد الجاموس الوحشى كان يدفعهم إلى ذلك حرصهم على التخفيف عن

(١) جنب الفرس يجنبه من باب قتل إذا قاده إلى جنبه .

خيولهم في مرحلة السفر الأولى حتى تباشر عمليات الصيد وقواها سليمة موفورة ؛ ولكن في صيد الحصان الوحشى كان يدفعهم إلى ذلك خوفهم من أن تفسد عليهم خيولهم المستأنسة خططهم في الصيد ، وتنحرف بهم في عدوها عن الطريق الجادة التي ينبغي أن يسلكوها في تعقب طرائدهم (انظر ص ٧٠) .

وكانوا يقضون أحيانا في سفرهم مدة طويلة قبل أن يشرفوا على قطع الجاموس وتبين لهم أشرطه عن كذب في سحب الغبار التي تتألف من مثار نقيه ، ودوى الرعد المنبعث من خواره وغمغمته وصعاقه ورجع أنفاسه في أثناء سيره وتدافع أفراده بعضها إثر بعض .

صيد الجاموس الوحشى عند الهنود الحمر

بعد أن يشرف أفراد العشيرة على القطيع ، يمتطي الرجال صهوة خيولهم ، وتنقسم القافلة عدة كتائب لكل كتيبة منها

عمل معلوم . ولعل الهنود الحمر قد أخذوا ذلك عن جماعة الذئاب إذ تلتقى بقطيع من الأنعام ، فتنقسم إلى شرازم تتحين كل شردمة منها الفرصة المواتية للهجوم على الحيوانات المتخلفة أو المريضة أو الجريحة ، لأنها لا تستطيع أن تنفذ إلى كتلة القطيع نفسه ، ومن الإسراف في مجهودها أن تتجمع في بقعة واحدة .

وبعد أن يصدر الرئيس إشارة البدء في العمل ، تصطف الكتائب كل كتبية منها على مسافة من الأخرى ثم يندفع أفراد الكتبية الأولى نحو قسم من القطيع ، فيجلبون عليه بخيلهم ، ويشيرونه بأصوات صاحبة مزعجة ، ويعمدون إلى الأثني التي تقوده فيفصلونها هي وأتباعها عن القطيع ، ويستفزون القسم المنفصل ، ويعملون على تطويقه من بعض نواحيه ، ويدفعونه إلى حيث تقف أفراد الكتبية الثانية ، وهذه تزيد في إقصائه عن القطيع وفي تطويقه ... وهكذا حتى ينفصل عنه كل الانفصال ، ويصبح مطوقاً من جميع جهاته بالرجال . فيتراكم بعضه على بعض ، وتضطرب حركاته ، ويكثر شمه لمواطني أقدامه ، ويعلو

خواره وصعاقه ، ويحفر الأرض بأظلافه حفرًا شديدًا ،
 فينقذ في الجو سحب كثيفة من الغبار ، وينغمر الرجال
 والأنعام في ظلمات بعضها فوق بعض . (انظر اللوحة رقم ١٦
 المواجهة لهذه الصفحة) . وفي أثناء ذلك يكون كل فارس قد
 اختار لنفسه قنيصا ، فيركض فرسه نحوه حتى يجاذبه ،
 ويضعه على يساره ، ثم يسدد إليه سهمه فيرديه جريحا أو
 قتيلا .

وتنطلق هذه السهام من أيد حاذقة صنّاع ، فلا تخطئ
 الرميّة ، ولا تنحرف عن الهدف ، وتندفع بقوة منقطعة
 النظر ، حتى إن بعضها ليمرق من الحيوان مروقا ، ويستقر
 فيما يصادفه بعد ذلك . وقد جرت العادة أن يضرب الحيوان
 بين كتفيه ، فيتروح بضع خطوات ثم يسقط متخنا بجراحه
 أو جثة هامدة (انظر الصورة العليا في اللوحة رقم ١٧
 بصفحة ٩٦) .

وحينئذ يغادره الصائد بدون أن يحاول الإجهاز عليه
 إن كان لا يزال حيا حتى لا يضيع عليه الوقت ؛ ويتعقب
 قنصيا آخر ثم ثالثا ورابعا . . . وهكذا حتى ينتهي الصيد ،



[اللوحة رقم ١٦]

قطعة من الجلد طولها متران مرسوم عليها منظر لإثارة قطع من الجاموس الوحشي وتقيب الصيادين
من الأوربيين والهنود والهنود الحمر لبعض أفرادها وصيدها (وهي من عمل الهنود الحمر أنفسهم)



[اللوحة رقم ١٧]

تمثل الصورة العليا صيد الجاموس الوحشى بالسهم
وتمثل السفلى صيده بالحربة

فيعود كل صائد إلى ما أصابه من هذه الحيوانات في مختلف
جولاته - ويعرفها بالسهم المنغمسة في كل منها ، لأن
كل سهم منها كان يحمل سمة صاحبه - فيجهز على
ملا يزال حياً من بينها ، ويعد رءوسها ، ويزهو على أقرانه
إن كان قد أصاب منها عدداً كبيراً .

وقد يستخدم الصائد أحياناً حربته أو خنجره . فإذا
اختار الحربة جعل الحيوان على يساره وغرسها في ظهره
وهو على صهوة جواده (انظر الصورة السفلى في اللوحة رقم ١٧
المواجهة لهذه الصفحة). وإذا اختار الخنجر تابع قنيصه حتى يقرب
منه ، فيقفز من ظهر جواده ويستقر على ظهر الحيوان نفسه ،
ويغمد خنجره بين كتفيه .

ولم تكن عمليات الصيد لتخلو من الخطر ؛ بل كانت
تنتهى أحياناً بحوادث أليمة تزهد فيها بعض النفوس . فإذا
انبت بعض أفراد القافلة مثلاً عن زملائه ، وحاول إثارة
قسم من هذه الحيوانات لفصلها عن قطعها ، ولكنه لم
يجد وراءه من يسلمها له ، ولم ينجح في تحويلها عن
اتجاهها ، وضاق وقته أو قصرت حيلته عن البعد عن طريقها ،

كان مصيره الموت البطيء هو وجواده تحت أقدام القطيع .

* * *

وكانت القافلة تعمل جهدها على تقصير زمن الصيد والاكتفاء بالضرورة منه ؛ كما كانت تحرص على حصر غنائمها في حيز ضيق وعدم بعثتها هنا وهناك . ولذلك كان رجالها يحيطون بالقسم المنفصل عن القطيع ، ويضغطونه في أضيق دائرة ممكنة ، ويعوقون سيره ، ويسدون عليه المنافذ (انظر اللوحة رقم ١٦ بصفحة ٩٥) ؛ فإذا أفلت على الرغم من ذلك يعرض الأنعام من النطاق المضروب ، تركوها وشأنها ، ولم يجشموا أنفسهم مشقة تعقبها ، حتى لا تتسع عليهم حلبة الصيد وتتبعثر الغنائم .

* * *

وكان عمل الرجال يقف عند هذا الحد . أما ما عدا ذلك من العمليات الشاقة التي كانت تجري على لحوم هذه الحيوانات وجلودها لإعدادها لحاجات الغذاء والكساء والمسكن والأثاث والماعون والسلاح وسائر مرافق الحياة ، فكان يقع على كاهل الجنس الضعيف . وهكذا كانت الأعمال مقسمة بين الجنسين قسمة غريبة ضيزى .

قصة الجاموس الوحشى

عند الهنود الحمر

على الرغم من أن الهنود الحمر كانوا يتعقبون هذا الحيوان ،
فيرحلون معه أينما رحل ويحلون حيثما حل ، ولا يفتأون في
حله وترحاله يشنون عليه غارات الصيد التى وصفناها في
الفقرة السابقة ، وعلى الرغم من أن حياتهم كانت تتوقف
في مختلف مظاهرها على ما يفيء عليهم من هذا الصيد ...
على الرغم من هذا كله ظل الحيوان على غزارته التى وصفناها
في الفقرة السابقة حتى دخل الأوربيون هذه القارة .
ويرجع الفضل في ذلك إلى عوامل كثيرة . منها أن آلات
الصيد التى كان يستخدمها الهنود الحمر وهى السهام والحراب
والخناجر كانت آلات بدائية ساذجة ما كان لمثلها أن
ينقص من كمية هذا الحيوان أو يعوق نموه . ومنها أن الهنود
الحمر كانوا يقنعون في صيده ، كما سبق توضيح ذلك ،

بالقدر الذى يسد حاجتهم المباشرة العاجلة غير باغين ولا عادين ولا قاصدين ربجاً ولا تجارة . ومنها قلة عدد الهنود الحمر أنفسهم ؛ فلم يكن عددهم عند كشف أمريكا ليزيد على ثلثمائة ألف ، مع أنهم كانوا يشغلون قارة كاملة من أكبر قارات العالم . ومنها أن وعيهم الجمعى الباطن قد جعلهم يحرصون على بقاء هذا الحيوان وغزارته ؛ مع أنهم كانوا ، فيما يسيطر عليه عقلهم الظاهر ، لا يكادون يدركون المستقبل البعيد ، ولا يحسون مقتضياته ، ولا يقيمون له وزناً .

ثم أخذت طرق صيده تزداد حدة وقسوة بعد أن دخل الأوربيون هذه القارة يحملون معهم أسلحتهم الماضية الفتاكة ونهمهم فى الربح وجشعهم فى جمع المال . ولكن الحيوان قاوم عوامل الفناء أمداً طويلاً ، وظل على غزارته حتى منتصف القرن التاسع عشر بل حتى أوائل العقد الثامن من هذا القرن . فى منتصف القرن التاسع عشر كان فى سهول أمريكا الشمالية زهاء مائة مليون رأس من هذا الجاموس . وفى عام ١٨٧١ روى أحد من جاسوا خلال

هذه القارة من ثقات الرحالة المؤرخين أنه قد مر بقطع
من هذا الجاموس يبلغ طوله زهاء خمسة وخمسين ألف متر .
ويرجع السبب في ذلك إلى أن وسائل النقل ظلت حتى
منتصف القرن التاسع عشر بدائية ساذجة لا تستطيع أن
تساير عمليات صيد عنيف . فمع أن الأوربيين كانوا نهمين
في الربح وجمع المال من أى طريق ، ومع أن جلود هذه
الحيوانات كانت في ذلك العهد كبيرة القيمة مغرية لهم
كل الإغراء - فقد بلغ ثمن الجلد الواحد منها نحو ثلاثين
دولاراً - ومع أن الحصول على هذه الحيوانات كان من
السهولة بمكان ، مع هذا كله فإن وسائل النقل لم تكن
مواتية لهم ، ولم يكن للجلود قيمة بدون نقلها إلى مواطن
الحاجة إليها . ولذلك كان من العبث الإسراف في عمليات
الصيد ؛ فافتصروا بصدها على القدر الذى تحتمله وسائل
نقلهم ويحقق لهم الربح . وبفضل ذلك ظل الحيوان على
غزارته أمداً طويلاً بعد نزوحهم إلى هذه القارة .

ولكن تغير كل شىء بعد أن أنشئت السكك الحديدية
واخترت هذه السهول . فاستحالت بعد ذلك عمليات

الصيد إلى عمليات إبادة واستئصال ، وأخذت تحصد
 الحيوان حصداً ، وتتعبه في مختلف مواطن فراره . فلم
 يكد ينقضى على إنشاء السكك الحديدية بهذه القارة خمس
 وثلاثون سنة ، أى لم يكد ينتصف العقد التاسع من القرن
 التاسع عشر (سنة ١٨٨٥) حتى انقضى هذا الحيوان
 أو أوشك على الانقراض .

فسهولة النقل حينئذ ، وغزارة الحيوان ، وغلاء جلده ،
 وجودة آلات الصيد وشدة فتكها ، وجشع الأوربيين
 ونهمهم في المال ، وغفلة المشرعين في ذلك العهد عن وضع
 قوانين تكفل بقاء الأنواع النافعة من الحيوانات . . .
 كل ذلك قد جعل الأوربيين ، والهنود أنفسهم على
 آثارهم ، يندفعون إلى الصيد هذا الاندفاع الجنوني ، حتى
 جف النبع نفسه وغارت موارده .

وقد زاد الطين بلة أن الأوربيين لم تقتصر تجارتهم في
 ذلك العهد على جلود هذه الحيوانات كما كان شأنهم من
 قبل ، بل اتجهوا كذلك إلى الاتجار ببعض القطع الكبيرة
 القيمة من لحومها وخاصة ألسنتها . فكانوا لذلك يعملون

على إيادة أكبر عدد ممكن من هذه الحيوانات حتى يستخلصوا منها أكبر كمية ممكنة من هذه القطع الثمينة . وقد زادهم هذا جنوناً في الصيد على جنونهم ؛ وحدثت من جراء ذلك مأس تقشعر من هولها الأبدان . فمن ذلك أن بعض التجار قد كدسوا بالقرب من محطة كنساس « Kansas » نحو خمسين ألف رأس من الجاموس الوحشى ، واقتصروا على تقطيع ألسنتها وتصديرها ؛ وتركوا جشها مبعثرة في مساحة واسعة حتى تعفنت ونشرت الأوبئة والطواعين في مختلف أنحاء القارة .

ولم يكن صيد الجاموس الوحشى في ذلك العهد مادة للربح والتجارة فحسب ، بل اتخذه الأوربيون كذلك وسيلة للرياضة واللهو والترفيه وقتل الوقت والزهو والتفاخر بالحدق والمهارة والتظاهر بالتعفف عن الربح المادى . وقد جانبوا القصد في خيالاتهم هذه كل المجانبة ، حتى إن أوربياً يدعى توم نيكسون « Tom Nickson » كان مزهواً لأنه استطاع أن يقتل مائة وعشرين رأساً من هذه الحيوانات في أربعين دقيقة لمجرد اللهو والرياضة . فجاء

هذا الاتجاه ضغناً على إبالة ، وأسرع بالحيوان نحو نهايته .
فقد استحال الأمر إلى صيد لمجرد الصيد ، وإلى ألعاب
إبادة لا ترمى إلى غاية أخرى غير الإبادة نفسها : وألعاب
هذا شأنها لا يمكن أن يصمد أمامها نوع من كبار الحيوانات
البرية مهما كانت درجة نموه .

* * *

واليوم لا نكاد نعثر إلا على هياكل هذا الحيوان في
المتاحف أو بعض أفراد قليلة منه في حدائق الحيوان .
وإن كان هناك بضع مئات من أفراده تعيش طليقة في
منطقة يلوستون في أمريكا الشمالية Park de Yellowstone
وبانقراض هذا الحيوان انقرض الهنود الحمر أنفسهم
أو أوشكوا على الانقراض . وإنما لتتقدم اليوم فلا نعثر
منهم إلا على فلول ضئيلة مبعثرة هنا وهناك ؛ يخبطون في
بعض المناطق المنعزلة عن العمران الحديث ؛ قد تقوض
بانقراض حيوانهم العزيز على أيدي الأوربيين أهم دعائم
حياتهم ، وانتزع البيض منهم أراضيهم ، وأخرجوهم من
ديارهم وأموالهم ، وسلطوا عليهم عوامل الهلاك ، ودبروا

لإبادتهم خطأً مجرمة أثيمة ، ولم يتحرجوا أن يلهوا بصيدهم
 كما كانوا يلهون بصيد الجاموس الوحشى ، فتجرعوا غصص
 الجوع والخوف ، وأحاط بهم الموت من كل مكان ،
 وأخذوا يسرون بخطوات حثيثة نحو الفناء . وهكذا لا يدخل
 الأوربيون بلداً إلا أفسدوه وجعلوا أعزة أهله أذلة وكذلك
 يفعلون !

وقد اعترف بهذا الجرم عدد كبير من مؤرخى الأوربيين
 أنفسهم . ومن هؤلاء السيدة چاكسون « Mrs H. Jackson »
 التى أطلقت على هذا العهد فى كتابها الذى يعد أهم وثيقة
 دامغة لمواطنيها من الأوربيين : « عصر الخزى والعار »

un siècle de deshonneur

وهذا هو مشعل الحضارة الذى يدعى الأوربيون أنهم
 يحملونه معهم حيثما يحلون .

الباب الثالث

القتال عند الهنود الأحمر

١

نزعة القتال وبواعثها عند الهنود الأحمر

لم تكن عشائر الهنود الأحمر سواء في مبلغ ميلها إلى الحرب . فهم من كان ينجح للسلام ، وينفر من القتال ، ويؤثر الدعة والهدوء . ومنهم من استحوذت عليه نزعة الحرب ، وسيطرت على نفوسهم ، فأصبحوا لا يسأمون الصراع ، ولا يملون المنايا ، ولا يجدون سعادتهم إلا في ميادين القتال . وكان هذا الفريق الأخير ينتظم معظم قبائل السهول كقبائل الأباش والكومنش والسيو والشين

Apaches, Comanches, Sioux, Cheyennes

وقد ساعد على تمكن هذه النزعة من نفوسهم عوامل اجتماعية كثيرة .

فمن ذلك أن مجتمعاتهم كانت تقوم على نظام القرابة العشيرية ، كما كانت تقوم مجتمعات العرب في الجاهلية ؛ فكان أفراد العشيرة الواحدة يرتبط بعضهم ببعض برابطة قرابة قوية متحدة الدرجة . ولم تكن هذه الرابطة قائمة على صلات الدم كما هو الشأن في الأمم الحديثة في الوقت الحاضر ؛ وإنما كانت قائمة على أساس انتماء الأفراد لتوتم واحد Totem . فلم تكن درجة القرابة التي تربط الولد بأبويه أو بأحدهما لتزيد شيئاً على درجة القرابة التي تربطه بأى فرد آخر من أفراد عشيرته ؛ بل لقد كان يعتبر أجنبياً عن أحد أبويه أو عن كليهما إذا قضت النظم المتبعة بانتمائه إلى عشيره أخرى غير عشيرة أحدهما أو غير عشيرتهما . وكانوا يؤلفون مجتمعاً مستقلاً ، منطوياً على نفسه ، مكتفياً بجهود أفراده ، حريصاً على استقلاله وعزلته عن غيره ، معترساً بأهله وتقاليده وتاريخه ، محترماً لمن عداه ، يعد كل غريب عن نطاقه عدواً له . ولا يخفى ما ينجم عن هذا النظام وعن نكرة العصبية الملازمة له من إثارة للإحـن والضغائن ، وإيقاد لنار الحرب ، وبث لنزعة

القتال في النفوس ، وتمكين لنظم الأخذ بالثأر والمطالبة بدم القريب ، ومبالغة في تقديس هذه النظم وتطبيقها حتى تصل إلى أعنف أشكالها ، وأشدّها وحشية ، وأدناها إلى الإبادة والتدمير .

ومن ذلك أيضاً أن نمط حياتهم كان أشبه شيء بنمط الحياة عند العرب في الجاهلية : حياة بداءة ونجعة وتنقل في طلب الكلاء والصيد . وحياة هذا شأنها تتيح فرصاً كثيرة لاحتكاك العشائر بعضها ببعض ، وتؤثر بينها نيران الأحقاد ، فيشتد تنازعها على البقاء ، وكفاحها في سبيل العيش ، ويقوى ميل كل منها إلى الإغارة على غيره والاستيلاء على ما في يده .

ومن ذلك أيضاً أن انتشار الفروسية في شعب ما يساعد على تمكن بزعة القتال في نفوس أفراده ويوجب إليهم الحروب . وذلك أن الفروسية نفسها ليست في حقيقتها إلا تدريباً على شؤون الحرب ، وأن مهارة الفارس لا تكاد تجد مجالاً لظهورها إلا في ميادين القتال . وقد رأينا مبلغ ما وصل إليه الهنود الحمر في شغفهم بالفروسية ومهارتهم في شؤونها ؛

فلم يكن مناص إذن من أن يشربوا في قلوبهم حب القتال
ويمهروا في شئونه .

٢

مشروعية الحرب وأنواعها عند الهنود الحمر

كانت الحرب في نظر الهنود الحمر إجراء مشروعاً
لا مأخذ عليه من عرف ولا دين ولا تقاليد ؛ بل إنها لم
تكن في نظرهم إلا ضرباً من ضروب الصيد . فقد كانوا
يرون أنه إذا كان من حق كل فرد أن يغير على قنيص
حيوانى ليسد به حاجة من حاجات غذائه أو كسائه أو
مسكنه ، أو ليرضى بذلك ناحية من نواحي نشاطه الجسمى
أو النفسى ، فإنه لا يمكن أن يحظر عليه أن يغير على إنسان
مثله ليسلبه ما يحتاج إليه أو ليرضى بذلك نزوة من نزواته .
فالالاتحاد في الغاية كان كافياً في نظر هؤلاء البدائيين لتبرير
مختلف الوسائل ؛ والحاجة وحدها كانت لديهم أساس
المشروعية في معظم الشئون .

بل إن الإغارة على الإنسان كانت تبدو لديهم أكثر جوازاً ومشروعية ، وأقرب إلى الشجاعة ، وأدنى إلى نبيل الأعمال من صيد الحيوان . فالقنيص الحيواني غير متاح له الدفاع عن نفسه بأسلحة من نوع الأسلحة التي تنوشه . فالنجاح في صيده لم يكن دائماً دليلاً قاطعاً على شجاعة أو قوة بأس . على حين أن في مقدور الإنسان في القتال أن يدفع عن نفسه بالأسلحة نفسها التي توجه إليه . فإذا غلب على أمره على الرغم من ذلك كان هذا دليلاً على أن خصيمه يفضله في الكفاية والشجاعة وقوة البطش وسعة الحيلة وحسن استخدام السلاح .

هذا إلى أن انطواء نفوس العشائر على الإحن والأضغان بعضها حيال بعض ، وتوقع كل عشيرة أن يغار عليها من العشائر الأخرى . . . كل أولئك كان يزيد في تبرير القتال ومشروعيته . وذلك أن كل عشيرة كانت تعلم أنها إذا لم تبدأ خصومها بالقتال وتغزهم في عقر دارهم ، فإن خصومها هم الذين سيبدؤونها لا محالة بالقتال ويغزونها في عقر دارها . وبذلك أصبحت الحرب ، مهما كانت هجومية ،

مجرد وسيلة لتعجيل الدفاع عن النفس ووقاية المجتمع مما عسى أن تتمخض عنه الحوادث من شرور . وأمر هذا شأنه لا جدال في نظرهم في مشروعيته وجوازه ؛ بل لقد كان خليقاً بأن يسمو إلى مصاف الواجبات .

غير أن نطاق الأعداء الذين يجوز لعشيرة ما أو يجب عليها قتالهم ، لم يكن مقصوداً على ما عداها من العشائر ؛ بل إن فروع العشيرة الواحدة كثيراً ما كانت تنشب بينها حروب أهلية لأوهي الأسباب وأشدّها تهاهة . فعشائر المندان مثلا *Les Mandans* وهي إحدى فروع السيو *Sioux* ظلت هدفاً لغارات متوالية من بني عمومتها أنفسهم وبعض أحلاف لهم من عشائر الأرباهو *Arapaho* ، وظلت سيوف بني أبيها تنوشها ، حتى مُزقت شر ممزق . وحينئذ انقلب الحلفاء أنفسهم بعضهم على بعض ونشبت بينهم حروب مبيدة يشيب من هولها الولدان .

وظل هذا حال الهنود الحمر حتى دخل البيض بلادهم ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، فألفت نكبتهم المشتركة بين قلوبهم ، وتناسوا إلى حين ما كان بينهم من عداوة

وإحس ، وتضافروا على قتال عدوهم المشترك ، وأخذوا
يشنون عليه غارات عنيفة متوالية ، ويقضون مضاجعه
بحروب العصابات . وقد شغل جهادهم هذا أجد صفحة
في تاريخهم ، وأشق مرحلة وأطولها في تاريخ الاستعمار
الأوربي ، وكان موضوعاً لمئات من المؤلفات والقصص
والروايات في القرون الثلاثة الأخيرة .

٣

أسباب الحرب عند الهنود الحمر

كانت الأسباب المباشرة للحرب عند هذه العشائر
كثيرة مختلفة الأنواع : منها الجليل الخطير ؛ ولكن معظمها
كان تافهاً حقيراً . فقد كانوا في الغالب يتلمسون أهوى
الأسباب لإشعال نار الحرب ؛ حتى لقد كان من بواعثها
لديهم أحياناً مجرد التقاء عشيرتين في طريق واحد أو مجرد
تجاورهما في مضارب الخيام . فعلى الرغم من أن الهنود
الحمر ما كانوا يرون ملكيتهم للمناطق التي يحلون في جانب

منها ، لأن حياة معظمهم كانت حياة نجعة ورحلة لا حياة استقرار ومقام ، وحياة كهذه لا توحى بنظام الملكية بوضع اليد . . . على الرغم من ذلك فإن مجرد التقاء عشيرتين في طريق واحد أو نزولهما في مضربى خيام متجاورين كان كافياً لإزعاج إحداهما أو كليهما ، وإثارة كامن عداوتهما للغريب ، وانبعاث نعة العصبية في نفوسهما ، فتشتعل بينهما نار الفتنة ، وما هي إلا لحظات حتى تشتبكا في حرب زبون .

وقد كانوا يقدمون أحياناً على الحرب بقصد السلب والنهب ، وخاصة الاستيلاء على الخيل التي كانت لديهم أنفس النعم جميعاً وأغلاها قيمة . وكانت العشيرة المتورة لا تنسى تربتها وما سلبتة من مال وحيوان ، وتعمل جاهدة على أن تثأر لنفسها متى حانت فرصة مواتية . وإذا كتب لها النصر هذه المرة فإنها لا تقنع باسترداد ما فقدته أو ما يساويه عدداً أو قيمة ، بل تحرص على أن تؤوب بأضعاف مضاعفة منه . فتأجج نار الحقد في أفئدة العشيرة الأولى ، وتتهيا للانتقام لما أصابها في الأموال والأنفس والشرف

والكرامة . . . وهكذا دواليك : تظل الحرب بينهما سجالاتا حتى تقضى العشيرتان ، أو تفرَّ إحداهما ملتزمة لها في الأرض منأى عن الأذى ، فيحول بينهما بعد الشقة ، أو يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وكان بعض العشائر يتخذ الحرب هواية وحرفة ويقدم على القتال لمجرد اللذة في القتال ولما يفيء عليهم به من غنائم . فأفراد عشائر الأباش مثلا Apaches كانوا يستنكفون من مزاوله أية حرفة أو صناعة ، أو التوفر على أى عمل منتج ، فاتجه نشاطهم واتجهت ميولهم إلى الحرب وحدها ، واتخذوها هوايتهم ومهنتهم وشغلهم الشاغل ، ووجدوا في علاج شئونها لذة لا تذكر بجانبها جميع لذات الحياة . فكانوا ينقضون على العشائر الأخرى انقضاض الصاعقة ، فيقتلون ويحرقون ويدمرون وينهبون ، ويؤوبون بدورات قتلاهم من رعوس الأناسى وبغنائمهم من النعم والأموال (الدائرة والدوارة هي التي في وسط الرأس التي ينتهى إليها فرق الرأس . وكانوا ينزعون من القتييل فروة دوارته بجلدها كما سيأتى بيان ذلك) .

وإلى هذا يرجع السبب في كثرة تنقلاتهم في مختلف أرجاء القارة كأنما كانوا موكلين بفضائها يذرعونها . وذلك أن الحراب والدمار كانا يسيران في رحلهم ؛ فما كانوا ينزلون بلداً إلا أقفر من أهله ، ودرست معالمه ، وهلك حرثه ونسله ، وعفت آثار الحياة فيه ؛ فيجاوزونه إلى بلد آخر ولا يزالون به حتى يلقى المصير نفسه الذي لاقاه البلد الأول . وكان يفلت منهم أحياناً بعض فلول من العشيرة المغلوبة ، فيخبط أفرادها في الأرض ، ثم يتاح لهم التجمع حيث يظنون أنهم قد أصبحوا بمأمن من أعدائهم ، فيتنفسون الصعداء ، ويستردون نشاطهم ، ويعكفون على أعمالهم ، ويقىمون ما يتاح لهم إقامته من مساكن وأثاث . ولكنهم لا يكادون يتذوقون طعم الاستقرار ويعودون إلى سيرتهم الأولى حتى يدركهم الأباش مرة أخرى ، فيتناولوهم سلباً ونهباً وتقتيلاً ، ويقوضوا ما أقاموه ، فيهيم الناجون منهم على وجوههم ويتفرقون شذر مذر ، وهكذا دواليك : لا تفر عشيرة من سيوفهم اليوم إلا لتلاقيها مرهفة غداً أو بعد غد ، ولا تكاد جماعة تخال أنها بمنأى عن ليلهم حتى

تدهمها شهابه ، وترخى عليها سدوله ، وتدرکها منه ظلمات
بعضها فوق بعض .

وقد تجرع منهم هذه الكؤوس مترعةً معظم عشائر
الهنود الحمر وخاصة عشائر المياس والتولتك Mayas,
Toltèques الذين أخذت بلادهم وحضاراتهم تنتقل من
جاء ذلك من منطقة إلى أخرى ، حتى طوّفت بمعظم
أنحاء هذه القارة : فكانوا لا يكادون يستقرون في بلد
جديد ويفرغون من بناء منازلهم فيه حتى تتخطفهم من
الأباش معاول الفناء ويأتيهم الموت من كل مكان أو من حيث
لا يشعرون .

وقد انتهى المطاف بعشائر الأباش حوالي القرن السابع
عشر الميلادي إلى بلاد المكسيك حيث كان الإسبان في
نعيم واسع وملك كبير ، وحيث وجد الأباش لغاراتهم مجالات
واسعة لا تنتهي لها آماذ ، ولأرزاقهم موارد فياضة لا ينضب
لها معين . فألقوا هناك عصا ترحالهم واستقر بهم النوى ؛
وكانت رحى الحرب بينهم وبين الإسبان لا يخفت لها دوى ،
ونيران غاراتهم الحافظة لا يخمدها سعي .

ولعل الذى ذاقه الإسبانيون من ويلات هذه العشائر
 وغاراتها هو الذى دعاهم إلى أن يطلقوا كلمة « الأباش »
 على أوشاب الناس وسفلتهم ومجرميهم . ولقد انتشرت هذه
 الكلمة بمدلولها هذا فى لغات الأمم الأوربية جميعاً وانتقلت
 منها إلى كثير من اللهجات الأخرى .

٤

مناهج القتال عند الهنود الحمر

لقد كان القتال فى نظر الهنود الحمر ضرباً من ضروب
 الصيد كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق . ولذلك لم تكن مناهجه
 العادية ومناهج خداعه لتختلف إلا قليلاً عن نظائرها فى
 الصيد . فكما كانوا يبحثون فى الصيد عن القطيع مهتدين
 بآثار أقدامه فى الأرض ، كانوا كذلك فى الحرب يعتمدون
 فى الغالب على اقتفاء الآثار فى البحث عن عدو مهاجر
 يقاتلونه . وكما كانوا فى المناهج العادية للصيد يهجمون على
 الحيوان سافرين ويشتبكون معه أحياناً فى صراع ينتصر

فيه أكثر الفريقين جرأة ومهارة ، كانوا كذلك في المناهج العادية للقتال يغيرون على عدوهم بعد أن يندروه بعلامات تشبه إعلان الحرب حتى يتأهب للقائهم ويعد لهم ما يستطيع إعداده من قوة ومن رباط الخيل . وكما كانوا في مناهج الخداع في الصيد يخفون أنفسهم عن الحيوان أو عن القطيع أو يظهرن أمامه بمظهر مصطنع لا يوجس خيفة منه حتى يتمكنوا من مهاجمته أو أخذه على غرة ، كانوا كذلك في مناهج الخداع في القتال يلبسون على العدو بإخفاء أنفسهم أو ظهورهم في غير مظهرهم الطبيعي حتى يتمكنوا من مفاجأته ويحولوا بينه وبين التأهب للقتال .

ولما كانت حياة معظمهم حياة بدائة ونجعة وتنقل في طلب الكلاء والصيد كانت معظم حروبهم تحدث بين عشائر متنقلة في طريق رحلتها أو في أثناء استقرارها الموقوت . فكانت العشيرة قبل أن تنفر للقتال ترسل بعض روادها للوقوف على اتجاهات العشائر الأخرى في سيرها . وكان يهديهم إلى ذلك اقتفاء الآثار التي ترسمها في الأرض أقدام القوافل المهاجرة . وقد بلغ قافتهم في فهم هذا مبلغاً كبيراً

من الأملية والحدق ؛ حتى إنهم كانوا يعرفون بفضل هذه الآثار اسم العشيرة المهاجرة وعدد أفرادها ونوعهم ووجهتهم وتاريخ مرورهم من هذا السيل وأقصر طريق للحاق بهم وهلم جرا (انظر اللوحة رقم ١٨ بصفحة ١٢١) .

وبعد أن يستقر الرأي على غزو عشيرة ما يعكف أفراد العشيرة المهاجرة ، قبل أن ينفروا للقتال ، على بعض طقوس واستعدادات تقتضيها تقاليدهم في هذه المناسبات . فيدق الرؤساء طبول الحرب ، ويطلقون في الهواء دخاناً خاصاً ، فيتجمع المقاتلون ، بعد أن يكون كل منهم قد أعد عدته ، فحمل أسلحته وذخائره ، ولبس ملابس القتال وقانسوته المزينة بريش النسور ، وغطى وجهه بقناع الحرب (انظر اللوحة رقم ١٩ بصفحة ١٢٢) . وكان هذا القناع عند هنود الوديان والسهول يغطي جميع أجزاء الوجه ما عدا الجبهة والعينين ، ويدهن بصبغة حمراء قانية . وكان بعض عشائر الهنود الحمر يدهنون وجوههم نفسها بهذه الصبغة . وإلى هذا يرجع السبب في وصفهم « بالحمرة » ، مع أن لون بشرتهم الطبيعية لم يكن من الحمرة في شيء . وكانوا يدهنون كذلك

الخيل التي سيستخدمونها في الحرب بألوان معينة وينقشون على وجوهها وصفحاتها نقوشاً خاصة (انظر اللوحة رقم ١٩ بصفحة ١٢٢ واللوحة رقم ٢٣ بصفحة ١٤٠) .

ثم يأخذ كل منهم مكانه في حلقة الرقص الحربى . وكان هذا الرقص على أنواع كثيرة تختلف باختلاف العشائر . (انظر اللوحة رقم ٢٠ بصفحة ١٢٥) . فعند عشائر السيو مثلًا Les Sioux كان المحاربون يلتفون حول موقد ملتهب الجمر ، وينحنون نحوه ثم ينتصبون ، كما يفعل بعض رجال الطرق الصوفية في أذكاهم في العصر الحاضر ، مرددين في أثناء ذلك هذه العبارة : « إن النار مجردة من الرحمة والشفقة ، وسنكون نحن مثلها حيال أعدائنا » . ثم يقبض رئيس العشيرة قبضة من التراب ويمسح بها خدود رجاله مبتهلاً إلى الأصل الأول الذى انحدرت منه العشيرة — وهو الجاموس الوحشى — أن يجعل التوفيق رائدهم في حربهم هذه . وفى تعفير وجوههم بالتراب تمثيل لحالة الجاموس الوحشى عند محاولته الهجوم على العدو ، إذ يحفر حينئذ الأرض بأظلافه وقرونه ويشير نفعها على وجهه ثم ينقض انقضاض الصاعقة على خصيمه .



[اللوحه رقم ١٨]
بعض الرواد وهم يبحثون عن العدو ويقصون آثاره



[اللوحة رقم ١٩]

أزياء الحرب والتأهب لها

في الشمال أحد رؤساء «السيو» بزى الحرب ويأخذى يديه عصا الحرب وعلى ذراعه الآخر الترس ؛ وبجانبه محارب فارس من عشيرته يتدلى على جانبه قوسه وجعبة سهامه ، وقد ارتدى قميصاً من جلد الجاموس الوحشى .
وفي الناحية اليمنى زوجة الرئيس في ملابس الحفلات الفاخرة ، وبجانباها أحد رجال السحر .

وبعد أن يفرغوا من هذه الطقوس يتناول كل محارب من
مخلاته المدلاة على جنبه قطعة من الفحم ، ويخط بها على
جسمه علاماته الخاصة به وفق ما تعارف عليه عشيرته في
طرق التمييز بين الأفراد .

ثم يتجمعون مرة ثانية في حلقة كبيرة يدورون حول
محيطها في حركات انجذاب عنيفة على نحو ما يحدث من
بعض أرباب الطرق الصوفية في حلقات الذكر ، مرتلين
في أثناء ذلك غناءهم الديني المقدس بنغمه الخاص به .
ثم يصدر الرئيس أمره بالنفير ، فيتحرك الجيش شطر
العشيرة التي استقر الرأي على مهاجمتها . وتعطى أوامر الرئيس
وإشارات تنظيمه لسير الجيش بصفارة كانوا يتخذونها من
عظام الديك الوحشى وخاصة عظام فخذه . فكان الرئيس
يحمل هذه الصفارة مدلاة على صدره ، وينفخ فيها نفخات
خاصة ترمز إلى أوامر وتنظيمات : فكان لها مثلا صوت
خاص للهجوم وصوت آخر للانسحاب . . . وهلم جرا .
وكانوا أحيانا يستخدمون كذلك لهذه الأغراض الأعلام
وأغصان الأشجار : فنشر العلم الأحمر كان يعنى الأمر

بالشروع فى القتال ؛ ونشر العلم الأبيض أو التلويح
 بغصن أخضر كان يشير إلى طلب الهدنة أو وقف القتال .
 وكانوا ينظرون إلى طلب الهدنة أو وقف القتال بهذه الوسيلة
 نظرهم إلى أمر مقدس لا يجوز رفضه أو الخروج عليه .
 وقد تركت هذه التقاليد البدائية رواسب فى جميع الأمم
 الإنسانية .

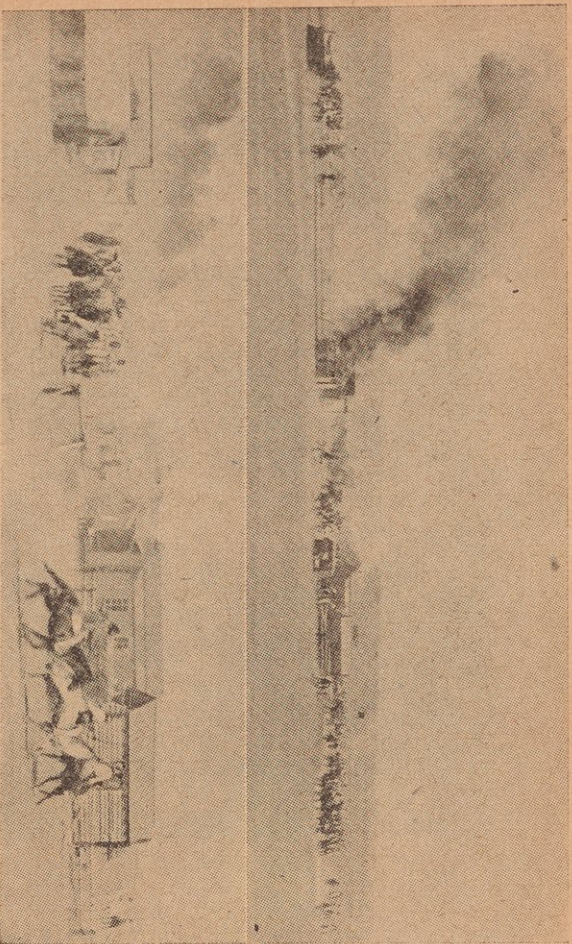
وكانوا فى أثناء اشتباكهم يصيحون صيحة الحرب ،
 وهى صيحة حادة مؤثرة تستغرق وقتاً طويلاً وتصحب بدقات
 سريعة متتابعة تنبعث عن التصفيق بالأكف أو تحريك
 الأصابع على الشفتين . ولم يكن فى جرس الصيحة نفسها
 ما يزعج أو يخيف ؛ ولكن ارتباطها فى أذهان العشيبة
 المغزوة بأعمال الحرب واستدعاءها فى أذهان أفرادها لكل
 ما يصحبها من تقتيل وإبادة وتدمير . . . كل ذلك كان
 يذيب القلوب من هولها فرقاًً ويطير بالنفوس شعاعاً .

وأما طرق الكر والهجوم والالتحام فلم يكن فيها
 ما يختلف كثيراً عن نظائره فى الأمم المتحضرة أيام أن كان
 الاعتماد فى الحروب على الخيول وفنون الفروسية . (انظر



[اللوحة رقم ٢٠]

بعض أنواع الرقص عند الهنود الحمر
العليا : رقصة الحرب عند عشائر «الأقدام السوداء»
والوسطى : رقصة الذرة عند عشائر «الهويس»
والسفلى : رقصة الوعول عند عشائر «الهويس»



[اللوحة رقم ٢١]

بعض مناهج الهجوم عند المنود الحمر

الحاربون يقذفون أسهما نارية على منازل العدو قبل مهاجمته ، فيشعلون بها الحريق

طريقة من هذه الطرق في اللوحة رقم ٢١ المواجهة لهذه الصفحة).
 وأما فيما يتعلق بأسلحة الحرب فكانوا يستخدمون منها
 كل ما يصلح للقضاء على الخصم أو أسره إن لم يمكن قتله
 (انظر اللوحة رقم ١١ بصحة ٤٥) .

٥

مناهج الخداع في القتال عند الهنود الحمر

كان بعض العشائر يستخدم في القتال وسائل مراوغة
 وخداع ، لمفاجأة العدو وأخذه على حين غرة منه . وكانت
 هذه الوسائل تتمثل في محاولة العشيرة المهاجمة أن تلبس
 على خصمها بإخفاء رجائها أو إظهارهم في غير مظهرهم
 الآدمي كما كانوا يفعلون في الصيد .

فمن ذلك مثلا أن عشائر الأباش كان يتجمع محاربوها
 أحيانا في أطراف غابة قريبة من مساكن العشيرة التي
 يبغون قتالها وفي يد كل منهم فرع طويل يختفي وراءه ويتقدم
 به في حركة وثيدة متقطعة يخيل للناظر إليها أنها حركة أغصان

ثابتة يداعبها الهواء .

ومن ذلك أيضاً ما كانت تلجأ إليه أحياناً عشائر الكومانش
لمفاجأة أعدائهم بالهجوم . فقد كانوا يستخدمون خيولا غير
مسرجة ويمد كل منهم جسمه بجانب صفحة فرسه ،
مطوقاً رقبته بذراعيه ومعتمداً بإحدى قدميه على مؤخرة
ظهره ، وفي منطقته قوسه وجعبة سهامه (انظر اللوحة رقم
٢٣ بصفحة ١٤٠) ، ثم يطلقون هذه الخيول شطر العشيرة
التي يريدون غزوها ، فيخيل لمن يراها على هذه الصورة
وليس على ظهورها رجال ولا سروج أنها قطع من الخيول
الوحشية ترتع وحدها في السهول ؛ ويظنون كذلك حتى
يشرفوا على منازل أعدائهم ، فيستديرون مرة واحدة من
صفحات خيولهم إلى ظهورها ، كأنهم مردة من الجن قد انشقت
عنهم الأرض ، أو أشباح من العالم العلوي قد قذفهم السماء .
ومن ذلك أيضاً ما كان يلجأ إليه أحياناً عشائر الكومانش
نفسها في الغارات التي كانت تشنها على بعض العشائر
لمجرد الاستيلاء على ما تملكه من خيول . فقد كانوا يعتمدون
في غزواتهم هذه على قوة المفاجأة وسعة الحيلة ، وينتفعون

فيها بما كان لديهم من خبرة منقطعة النظير عن طبائع
 الخيل وغرائزها ومناهجها في مختلف شئون حياتها . فكانوا
 ينتظرون حتى ينقضى شطر كبير من الليل ، ويكون
 أفراد العشيرة المقصودة في سبات عميق ، فيمتطى كل
 محارب منهم صهوة جواده المختار ، وفي يده حربته وهراوته
 وجلد خشن مدبوغ من جلود الجاموس الوحشي . ويتم
 هذا كله في حركة سريعة ماهرة ، فلا يسمع لهم ركز
 ولا تحس لهم نبأة . وما هي إلا فينة كلمح البصر أو هي
 أقرب حتى يكونوا في القرية التي يبغون سلبها ؛ فيجوسون
 خلال ديارها ، وينتشرون في مختلف دروبها ، وهم
 يصيحون صيحات مزعجة ، ويقعقعون بالشنان التي يحملونها ،
 ويحكّون أطرافها بعضها ببعض ، فينبعث من احتكاكها دوى
 كدوى الرعد ، ويقوضون الخيام على رعوس النائمين تحتها ،
 ويبعثون أمتعتهم وأثاثهم في مختلف الأنحاء . فتطير نفوس
 هؤلاء شعاعاً ، ويتملكهم الهلع والرعب ، ويتفرقون شذر
 مذر ، ويجمع كل منهم طالباً لنفسه النجاة ، لا يلتفت
 وراءه ، ولا يلوى على أحد أيا كان ، حتى لتذهل المرصعة

عما أرضعت ، ويفر الأخ من أخيه . وتنقضى على هذه
 الحال فترة طويلة يعجز في أثناءها كماء القوم ورؤسائهم
 وشيوخهم عن تهدئة فزعهم ولم شملهم ؛ ولكنهم لا يزالون
 بهم حتى يفيقوا من ذهولهم ، ويفرخ روعهم ، وتنزل عليهم
 السكينة ، وتنبعث في نفوسهم الحمية ، وتعاودهم نكرة
 العصية ، ونزعة الدفاع عن الأهل والعشيرة ، فيتجمعون
 ويتهيئون للاشتباك مع الغزاة ، ويتسلحون بما يتاح لهم جمعه
 من هنا وهناك . ولكنهم يبحثون عن العدو فلا يجدون
 أثراً له ، ويتحسسون من أنفسهم وأهليهم فإذا هم كما كانوا
 قبل هذا الطائف الغريب ، لم ينقص منهم فرد ، ولم يصب منهم
 أحد بأذى بليغ ، ويتلمسون أثاثهم وأمتعتهم فيجدونها كاملة
 لم يأخذ العدو منها شيئاً وإن بعثها في مختلف الأنحاء .
 ولكنهم يتفقدون خيولهم فيتين لهم من آثارها أنها قد تملكها
 الذعر ، فحطمت قيودها ، وانطلقت هائمة على وجوهها ،
 بدون أن يحاول أحد أن يعترض لها سبيلاً . فيخيل إليهم
 أن نفراً من الجن قد اتخذوا في هذه الليلة من دروب
 قريتهم ملاعب ، ومن متاعهم دمي وكرات !

وفي الحق إن الكومانش ما كان يهمهم من الجلبة التي
أحدثوها إلا أن تحطم الخيول قيودها وتنطلق هائمة على
وجوهها ، ليتمكنوا من الاستيلاء عليها بدون جهد ولا عناء
ولا اشتباك في حروب . وذلك أنهم في ضوء معلوماتهم
الدقيقة عن طبائع الخيل وغرائزها ومناهجها في مختلف
شئونها ، كانوا يعرفون الطرق التي ستسلكها هذه الخيول
ومواطن تجمعها ، ويعلمون مدى طاقتها في العدو ، ومتى
ينال منها الإعياء حتى لا تقوى على الحركة ، ويعملون على
مفاجأتها في فترة عجزها هذا ، فيجمعونها غنيمة سهلة
ثمينة ، ويؤوبون بها إلى ديارهم .

تعذيب أسرى الحرب والتمثيل بهم عند الهنود الحمر

كانت القاعدة الغالبة عند معظم عشائر الهنود الحمر
أن يعامل أسرى الحرب معاملة إنسانية رفيقة ، بل إننا
لا نكاد نجد استثناء صارخاً لهذه القاعدة إلا عند عشائر

الأباش . فقد جرت عادة هؤلاء أن يقطعوا أصابع أسراهم وهم أحياء ، ويتخذوا من هذه الأصابع أساور وقلائد يتحلى بها الرجال للزينة والزهو ولتكون دليلاً على شجاعتهم وكثرة من وقع في أيديهم وأذلوه من أسارى الحرب . وكانوا بجانب ذلك يسومون أسراهم صنوفاً أخرى كثيرة من العذاب . وقد بلغوا في تفننهم وقوة إبتكارهم لألوان التعذيب التي كانوا يصبونها على الأسرى درجة منقطعة النظير تشهد بنخصب خيالهم وسعة حيلتهم ، أو بالأحرى بنخصب خيال نساءهم وسعة حيلتهن ؛ فقد كان يعهد بذلك للنساء ، وكن يؤدينه على أعنف وجه ، وأشدّه قسوة ، وأدناه إلى طبائع التوحش والافتراس .

ولم يكن الباعث الأصلي على ذلك مجرد التلذذ برؤية الدم المهرق ؛ أو بالتعذيب والتمثيل بأجسام الناس ؛ وإنما كان الباعث عليه أن ينتزع من الأسير ، من شدة ما يسامه من الحسف ، اعتراف بضعفه وقوة قاهره . وذلك أن قهر الأسير ما كان يتحقق في نظرهم إلا إذا ظهرت عليه الذلة والمسكنة ، فاعترف بضعفه ، وعدم

قدرته على احتمال ما يحتمله الكمأة من الرجال، أو طلب
الرحمة من أسريه . غير أنه كان من المتعذر في الغالب أن
ينتزع من الأسير اعتراف من هذا القبيل مهما بولغ في
تنديبه ؛ فقد وصل الهنود الحمر في اعتزازهم بأنفسهم
وعشائرتهم ، وترفعهم عن الظهور بمظهر الذلة والعجز ،
وقدرتهم على احتمال الآلام ، إلى درجة لم يكد يصل إلى
مثلاها أو ما يقرب منها أى شعب آخر من شعوب الأرض .
ولعل صنوف العذاب التي كان لزاماً أن يذوقها كل
واحد منهم مختاراً في أثناء مرحلة التعميد Initiaion والتي أشرنا
إليها فيما سبق (انظر صفحتي ٦١ ، ٦٢) هي التي كان لها الفضل
في بث هذه النزعة في نفوسهم ، وفي تدريبهم على قوة الاحتمال ،
وفي مبلغ ما وصلوا إليه في الاستخفاف بآلام الجسم والاستهانة
بما يصيبه من نكال . فقد كان الأسير يشد وثاقه إلى سارية ،
وتصب عليه أسواط العذاب من كل صنف ، ويأتيه
الموت من كل مكان ، بدون أن يفتر لسانه عن ترديد
أغنيات حماسية خاصة بهذه المناسبات تسمى : « أغاني
الموت » يعدد فيها مناقبه وما أثر عنه في ميادين الوغى من

إقدام وشجاعة ، ويزهو أنه لم ير بعد من هو أقوى منه
 في ميادين الحرب أو أشد لها مراساً ، ويستخف بأسريه
 وبما يسومونه إياه من عذاب ، ويوجه إليهم من لاذع
 الإهانة ما يثير الجهاد . وكلما زادوه تنكيلا زاده هذا
 إمعاناً في زهوه وتحقيره إياهم . فينتهي بهم الأمر إلى
 اليأس من أن ينتزعوا منه ما كانوا يريدون انتزاعه من
 اعتراف صريح بالضعف . وحينئذ يقنعون بما دون القليل ،
 ويودون لو صدر عنه اعتراف ضمنى بذلك في تأوه أو
 رعشة ألم . وحتى هذا الاعتراف الضمنى ما كانوا يستطيعون
 في الغالب سبيلا إلى الحصول عليه . فقد كان الأسير يقطع
 إرباً إرباً بدون أن يفتر لسانه عن التغنى بشجاعته والتمكّم
 بأعدائه . فتنجيه جهودهم كلها حينئذ إلى العمل على إسكاته
 بأية وسيلة . وحتى هذه الغاية السلبية ما كانوا يستطيعون في
 الغالب سبيلا إلى تحقيقها إلا إذا انتزعوا لسان الأسير
 انتزاعاً من بين فكّيه !

فلم يكن الباعث لهم إذن على تعذيب الأسير مجرد
 الرغبة في التعذيب أو إرضاء ميول دموية ، وإنما كان ذلك

نتيجة لازمة لأمرين : أحدهما شدة حرص المنتصر على أن يعترف المهزوم بقهره في صورة ما ، وثانيهما شدة عناد المهزوم وتجاهله لما حدث ولما يجري عليه وإمعانه في إنكار الهزيمة .

وقد زاد من اندفاعهم في هذا السبيل علمهم أنهم سيلاقون المصير نفسه إذا وقعوا أسارى في أيدي أعدائهم ، وأن هؤلاء لن يدخروا وسعاً في تعذيبهم والانتقام منهم . فكانوا يعملون ، قبل أن يلاقهم هذا المصير المهين ، على أن ينعموا بأقصى ما يمكنهم أن ينعموا به من لذة النصر ، والارتياح إلى القهر ، وإذلال الأعداء .

٧

انتزاع الدورات من رعوس الأسرى «Le Scalpe»

اشتهر الهنود الحمر بعادة غريبة في التمثيل بالأسرى وهي انتزاع دوراتهم بجلدها وشعرها ، وذلك أنهم كانوا يعمدون

إلى دائرة في نحو مساحة الكف في قمة الرأس حيث يغزر الشعر فيفصلون محيطها بمشط عن بقية جلد الرأس ، ثم بمسكون بخصلة شعرها ، ويجذبونها جذبة قوية ، فتنفصل مع جلدها عن الرأس . وكان يكتفى أحياناً بانتزاع خصلة الشعر وحدها إذا لم يستطع انتزاع الجلد أو لم يتسع الوقت لذلك .

وما كان يجوز أن تجرى هذه العملية إلا على عدو ، أى شخص من غير أفراد العشيرة . فإذا اتفق أن أسر الهندي فرداً من قبيلته أو قتله فإن التقاليد تحرم عليه تحريماً باتاً أن ينتزع دوارته ، وتعد ذلك جرماً كبيراً يחדش الشرف والكرامة ، ويعرض مقترفه لمسئولية خطيرة .

وكان الغالب أن تجرى هذه العملية على العدو بعد موته ، أو إذا ظن أو فرض أنه مات . وإذا أجريت عليه وهو حي لم تكن في جميع الأحوال لتؤدى إلى موته . فالجرح نفسه لم يكن خطيراً ، ولم يكن ليستغرق من جلدة الرأس إلا حيزاً ضيقاً لا يكاد يتجاوز في مساحته باطن الكف . ولذلك كان يوجد من بين بدو السهول وساكنى القرى كثير

ممن انتزعت دواراتهم ثم التأم جرحهم وظلوا أحياء أشداء
 (انظر اللوحة رقم ٢٢ بصفحة ١٣٩) . وكان بعضهم لا
 يستنكف أن تظهر آثار جرحه ، على حين أن معظمهم
 كان يحرص على إخفائه تحت قلنسوته أو عقدة منديله خجلا
 من مظهر الهزيمة الذي يرمز إليه .

وكانت العشيرة تعنى بجمع ما انتزعته من رعوس أعدائها
 من دوارات ، وتتخذ منه مادة للتفاخر والزهو ، وآية على
 شجاعة رجالها وجراتهم في ميادين الوغى وكثرة من وقع في
 أيديهم وأذلوهم من أسارى الحرب . ولذلك كانوا يحرصون
 على إظهار هذه الدوارات وعرضها ، فيحملونها بأيديهم
 كالمذبات ، ويعلقونها في أعنة خيولهم وفي أسلحتهم وأرديتهم
 وسراويلهم وأمتعتهم ، ويزينون بها خيامهم ، ويرفعونها
 كالأعلام في كثير من المناسبات في وجهات منازلهم وعلى
 جوانبها وقممها وفي رعوس أعمدتها ، ويلصقونها في طوق متخذ
 من غصن أخضر ويشبتون الطوق في نهاية عصا طويلة يحملونها
 معهم أو يقيمونها كالنصب في أفنية ديارهم (انظر اللوحة
 رقم ٢٢ بصفحة ١٣٩) .

ولم تكن هذه العادة مقصورة على الهنود الحمر ، بل كانت متبعة لدى شعوب أخرى في الدنيا القديمة نفسها . فقد ذكر هيرودوت أن السيثيين Seythes — وهم شعب بدوى همجى كان يتنقل في العصور القديمة في المناطق الواقعة في الشمال الشرقي من أوروبا والشمال الغربي من آسيا — كانوا يجرونها على أسرى الحرب . ويظهر أن هذا التقليد أو ما يشبهه كان متبعاً عند بعض الشعوب السامية القديمة وأن رواسب منه قد بقيت عند العرب في الجاهلية ، فقد كانوا يجزون ناصية الأسير إذا منوا عليه ، أى أطلقوا سراحه بدون فداء . وفي هذا يقول حسان بن ثابت :
كم من أسير فككناه بلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها
ويظهر أن الهنود الحمر كان يدفعهم إلى ذلك في الأصل بعض عقائد تتصل بعالم الأرواح والعالم العلوى . فقد كان الشعر في نظرهم ، وخاصة شعر الدوارة ، هو رمز الروح ومقرها . فكانوا يظنون أن من تجرى عليه هذه العملية تصبح روحه نفسها أسيرة في أيديهم فلا تستطيع أن تغادر مكمنها وتثار لنفسها ولا أن تجلب أذى للأحياء من الناس ،



[اللوحة رقم ٢٢]

الدوارة ووجوه استخدامها (انظر ص ١٣٧)
وفي أسفل اللوحة من الناحية اليمنى
صورة تمثل شخصاً انتزعت دوارته



[اللوحة رقم ٢٣]

في اليمين : صورة تمثل فارساً يخفي نفسه بجانب صفحة جواده (انظر صفحة ١٢٨) .

وفي الوسط: مثال من الدروع المستخدمة عند الهنود الحمر .
وفي اليسار : أحد رجال السحري يرقى الحصان بعد نقشه بألوان ورسوم خاصة قبل خروجه للحرب .

ولا يستطيع الروح الأكبر Grand Esprit أن يرفعها إلى
 علين في جنات الصيد العظيم Paradis des Grandes Chasses
 فتظل في العالم السفلي أبد الأبدين .

يبد أن انتزاع الدوارات لم يكن منتشرًا ، قبل دخول
 الأوربيين هذه القارة ، إلا عند بعض عشائر في الشمال
 الشرقي ، وخاصة عشائر الإيروكيين Les Iroquois الذين
 يعدهم بعض الباحثين أقدم من ظهر فيهم هذا التقليد
 الوحشي من عشائر الهنود الحمر . أما العشائر التي كانت
 تسكن السهول ، وهي معظم عشائر الهنود الحمر ، كالسيو
 والشيين والكومانش ، فكانت إلى ذلك الحين تجهل هذا
 التقليد كل الجهل .

ولكن هذه العادة لم تلبث ، بعد دخول الأوربيين هذه
 القارة ، أن انتشرت انتشاراً كبيراً عند جميع عشائر الهنود
 الحمر . ويقع الوزر في انتشارها هذا على الأوربيين أنفسهم
 وما جلبته مدنيتهم على هذه البلاد وأهلها من مصائب
 وأرزاء . فقد استحوذ على نفوس كثير من الأوربيين في
 ذلك العصر هواية غريبة بجمع هذه الدوارات ، كما يهوى

كثير من الناس في العصر الحاضر جمع طواع البريد . فانطلق هؤلاء ينقبون عنها في مختلف أرجاء القارة ، ويتجشمون في سبيلها المشاق والأسفار ، ويتنافسون في اقتنائها ، ويتسابقون في الإكثار من عددها ونوعها ، ويبتاعونها من البدائيين بأغلى الأثمان . ونشأت في أثناء ذلك طبقة من التجار والوسطاء بين المنتجين والمستهلكين ، بين صائدي الدورات من البدائيين وهواة جمعها من الأوربيين . وأخذت هذه الطبقة تعمل جاهدة على ترويج بضاعتها ، وإغراء المنتجين بمختلف وسائل الإغراء على زيادة إنتاجهم ، وحث المستهلكين على الإمعان في هوايتهم . فأصبح من جراء هذا كله للدورات سوق زاخرة تسيل فيها البضاعة منحدرة من مختلف المنابع ، ويشهد منافعها عدة طوائف ، وتهوى إليها أفئدة كثير من الناس . ووجد البدائيون في هذه البضاعة السهلة الإنتاج مجالا واسعا للربح وجمع الأموال . فأخذت هذه العادة تنتقل من عشيرة لعشيرة ، وتسرى من منطقة إلى أخرى ، حتى عمّت جميع أنحاء القارة . ولم يكد يبرز القرن السابع عشر حتى كان « صيد » الدورات

المهنة المحببة لجميع عشائر الهنود الحمر .

فانتشار هذه العادة لديهم ، واندفاعهم في تيارها هذا الاندفاع ، كل ذلك كان مرجعه إذن إلى الأوربيين أنفسهم ، وكان قائماً على الأسباب الاقتصادية نفسها التي دفعتهم إلى المبالغة في صيد الجاموس الوحشى لتقديم جلوده وألسته إلى الشركات التي ألفها البيض للإشراف على هذه التجارة وتصديرها عقب استعمارهم لهذه البلاد . وإلى هذا العامل الاقتصادي الذي يقع وزره على الأوربيين وحدهم انضم فيما بعد عوامل الزهو والتفاخر والاعتبارات الدينية التي أشرنا إليها في صدر هذه الفقرة ، وتضافر كل أولئك على رواج هذه السوق وحرص الهنود الحمر على تزويدها بما تحتاج إليه .

ولكن مهما يكن من شيء بصدد مسؤولية الأوربيين عن انتشار هذه العادة عند الهنود الحمر ، فإن اندفاع هؤلاء في هذا التيار لدليل على تأصل العادات الدموية وغرائر القسوة والسفك في طباعهم ، واستخفافهم بالنفس الإنسانية ونظرهم إلى الأعداء نظرهم إلى أنعام الصيد

آداب الحرب عند الهنود الحمر

لقد كان للهنود الحمر بمختلف عشائهم آداب حربية عالية يحرصون على احترامها ، وتشبه ما نسميه في العصر الحاضر قواعد الاتفاقات والقوانين الدولية في القتال ، بل تزيد عنها سموً ونبلا من عدة وجوه .

ومن هذه الآداب أن العشيرة المقاتلة كانت تكرم وفادة من يلجأ إليها من أعدائها محتسماً بجماها ، فينعم بين ظهرانيها بأمان كامل ، ولا يجوز لأى فرد من أفرادها أن يمسه بأذى ، مهما كان مبلغ جرمه في جنبها ومبلغ عداوتها له وحرصها على هلاكه ، وحتى لو كان التجاؤه هذا نتيجة اضطرارية لضغط حوادث القتال . بل لقد كانت رعايتهم تلازمه إذا أزمع الرجوع إلى أهله . فكانوا في هذه الحالة يدللون له سبل الرحيل ، ويهدونه معالم الطريق الذى ينبغى أن يسلكه ، ويزودونه بما عسى أن يحتاج إليه في رحلته

من وسائل العيش والانتقال والدفاع عن النفس ، فيمدونه بزاد كاف وأسلحة ماضية وفرس مطار .

ومن آداب القتال عندهم كذلك أن غير المقاتلين من الأعداء ، وهم النساء والأطفال ، كان يحرم تحريماً باتاً أن ينالهم أذى في أثناء الحروب . وكان هذا التقليد موضع اتفاق عند جميع عشائهم حتى أشدها وحشية وقسوة في القتال ، وموضع احترام لدى قوادهم ورؤسائهم حتى أشدهم تعطشاً إلى الدماء . فقد أسرو المكسيكيون مرة في أثناء اشتباكهم مع عشائر الأباش التي ذكرنا فيما سبق مبلغ قسوتها في القتال قائداً من قوادها يدعى جيرونيمو Geronimo قد اشتهر بالعنف والتجرد من الرحمة في معاملة الأعداء . فأخذ هذا القائد ، كعادة الأسرى من عشائر الهنود الحمر ، يعدد مناقبه ، وما أثر عنه في ميادين الهوى من شجاعة وإقدام ، ويفخر بأن آلافاً مؤلفة من الأعداء قد لقوا حتفهم على يديه وأن آلافاً مؤلفة من الأسرى قد جرّعهم من غصص التعذيب والتمثيل والنكال ما لم يسمع بمثله أحد من العالمين ؛ ولم يأسف إلا لشيء واحد وهو

أنه لن يتاح له بعد اليوم قتل أحد من أعدائه ولا تعذيبه ؛
ولكنه لم يفته أن يضيف إلى مواطن فخره « أنه لم يرق
قط دم طفل أو امرأة عن عمد ولا عن خطأ في أثناء
القتال » ؛ مع أنه لو كان قد أقدم على شيء من ذلك
لكان له بعض العذر وكان معاقبا بمثل ما عوقب به هو
بالذات على أيدي الأوربيين ، وذلك أن امرأته وأمه وأطفاله
الصغار قد اختطفهم المكسيكيون غدرًا في غير حرب
وذبحوهم ذبح الأنعام .

ومن آداب القتال عندهم كذلك أنه إذا لم يرض المحاربون
برياسة قائد آلت إليه القيادة لما أبداه من شجاعة في
القتال ، أنهموا إليه ذلك بطرق منظمة مضبوطة حددها العرف
وأقرتها التقاليد ؛ فإن أبي أن يدعن لرغباتهم ، لا تحدثهم
نفوسهم مطلقاً بقتله غيلة أو التخلص منه بطرق غادرة ،
وإنما يندرونه أن يستعد للمبارزة ، فإن تغلب خضعوا
لرياسته ، وإلا نزل هو على ما يريدون .

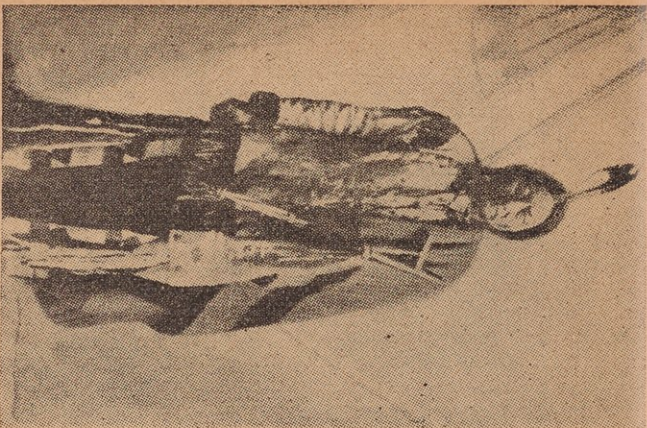
ومن هذه الآداب كذلك أن معاهدات التحالف والتهادن
بين العشائر كانت مقدسة كل التقديس . فمع أنها لم تكن أكثر

من عبارات يرددها الرؤساء وهم يصطلون حول موقد ملتهب
 الجمر ويتبادلون قصبة تدخين خاصة تسمى قصبة السلام
 Calumet de la paix كانت تعد ميثاقاً غليظاً يخضع له
 كل من شاهده أو اشترك في إجرائه ، ولا يمكن لأية قوة
 أو أى حادث طارىء أن يثنىهم عن الوفاء به . (وقصبة التدخين
 هذه أنبوبة طويلة تنتهى بوعاء صغير يوضع فيه الطباق ؛
 وقد نقلت عنها القصبة التى تستخدم الآن بعد تقصير
 أنبوبتها . هذا ومن المعروف أن عادة تدخين الطباق نفسها
 قد أخذها العالم كله عن الهنود الحمر وأنها لم تكن معروفة
 قبل كشف الدنيا الجديدة . وقصبة السلام كانت تمتاز بأنها
 مزينة بريش النسرو بقطع حمراء من البخلد . (انظر صورتها
 فى اللوحة رقم ٢٥ بصفحة ١٥٠) .

ومن هذه الآداب كذلك أنه ما كان يصح أن يجرى قتال
 بالليل . وكان الغرض من ذلك أن يجرى القتال فى وقت
 تمكن فيه مراقبة أعمال الفزيقين والوقوف على مبلغ اتفاقها
 مع ما تواضع عليه القوم من قواعد فى الحرب ، وحتى
 لا يعوق الظلام محارباً عن مراعاة هذه القواعد أو يؤدى إلى

مخالفته إياها عن غير قصد ، وحتى تستبين الأهداف فلا يصاب ما لا تصح إصابته ويستثنى من ذلك غارات الكومانش التي تكلمنا عنها فيما سبق (انظر ص ١٢٩ وتوابعها) . غير أن هذه الغارات لم تكن حروباً بالمعنى الصحيح ، وما كان يقصد منها منازلة العدو ؛ وإنما كانت ترمى إلى مجرد إحداث جلبة قوية مفاجئة حتى تحطم الخيول قيودها وتنطلق هائمة على وجوهها ليتمكن الكومانش من الاستيلاء عليها فيما بعد بدون جهد ولا عناء ولا اشتباك في قتال .

ومن هذه الآداب كذلك أن الشجاعة والإقدام في القتال كانا من أكبر الفضائل التي يمتاز بها المحارب عند الهنود الحمر ، كما أن الضعف وانخور كانا من أكبر المعرات التي تلصق به . فما كان يباح أن يستسلم المحارب لأعدائه مهما تقطعت به الأسباب ، بل كان يجب عليه أن يظل يقاتل حتى يغلب على أمره فيقتل أو يؤسر ؛ وما كان يباح أن يصدر منه أو يبدو عليه ما ينم على تأله مما يوقعه به الأعداء من عذاب إذا ظفروا به أسيراً مهما كان مبلغ هذا العذاب . وكانوا يكبرون الإقدام والشجاعة حتى عند أعدائهم أنفسهم .



[الملوحة رقم ٢٤]

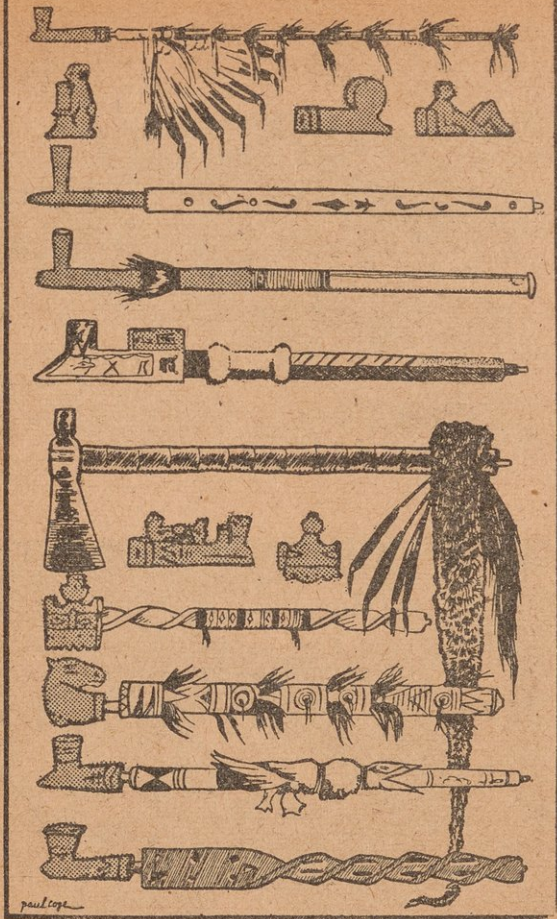
زعجان شهبان من زعماء عشيرة السيو

وفي المال سيتيج - بل

Sitting - Bull

في العين رد - كلود

Red - Cloud



[اللوحة رقم ٢٥]

أنواع من قصبه التدخين

وأعلاها هي «قصبه السلام» (انظر ص ١٤٧)

في موقعة « القرن الكبير Big Horn » التي سجلت أمجد
 صفحة للهنود الحمر في تاريخ صراعهم مع الأوربيين ،
 فقد حصدوا فيها الجيش الأمريكي حصداً وأبادوه على بكرة
 أبيه ، في هذه الموقعة لم تترك جثة بدون انتزاع دوارتها
 إلا جثة الجنرال كاستر Custer الذي كان قائداً عاماً
 للجيش الأمريكي . وكان هذا استثناء من قواعد الحرب عند
 الهنود الحمر ؛ وخاصة لأن صاحب هذه الجثة كان القائد
 العام نفسه ، وأن دويلة شخص هذا شأنه كانت خليقة أن
 تكون أبلغ رمز لانتصارهم . وقد سئل فيما بعد سيتينج
 بول Sitting-Bull (انظر صورة هذا القائد وقائد آخر
 لا يقل عنه شهرة Red Cloud في اللوحة رقم ٢٤ بصفحة ١٤٩)
 القائد العام لعشائر السيو التي يرجع إليها الفضل في إحراز
 هذا النصر عن السبب في هذا الاستثناء ، فأجاب بأن
 القائد الأمريكي كان رجلاً شجاعاً ، فقد ظل يقاتل حتى
 في جميع أفراد جيشه ، وبقى هو وحده ، فوجد نفسه
 بين خطتين : إما دم وإما إيسار ، فأثر الأولى ورأى أن
 القتل أجدر بالحر ، فما ضعف ولا وهن ولا استكان ولا

فكر في إلقاء سلاحه ، بل ظل يقاتل قتال المستميت
بمفرده جيشاً يبلغ عدة آلاف حتى أثخنه الجراح وأصبح
كتلة متحركة من الدم ، وخر صريعاً وسيفه في صدور
أعدائه . فمن أجل ذلك كرمننا جثته بعد موته ، كما كرم
نفسه في حياته ، وأبقينا على دوارته إكباراً لمواقف الشجاعة
التي ختم بها تاريخه المجيد .

على عبد الواحد وافي

المسند

للإمام أحمد بن حنبل
شيخ الأئمة وإمام أهل السنة

الكتاب الذي جعله مؤلفه للناس إماماً وهو أوسع
مرجع في الحديث لكل محدث وباحث

شرحه وصنع فهارسه
الشيخ أحمد محمد شاكر

ظهر منه

على ورق ممتاز :

٧ أجزاء

ثمان الجزء ٨٠

على ورق جيد بإشارة ملكية سامية من حضرة
صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود

الجزآن ١ ، ٧ (وباقى الأجزاء تحت الطبع)

ثمان الجزء ٣٠

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

ظهر حديثاً . . .

لأديب العصر ونابغة الغرب

إميل لودفيغ

ترجمة الكاتب العالم الأستاذ

عادل زعيتر

(١) بسمارك ٩٠ قرشاً

خير كتاب أخرج للناس عن إمام السياسة وداهية
الدهر وباني الوحدة الألمانية بسمارك الذي لم يتخرج
الفيلسوف الفرنسي لوبون من وصفه بـ « صاحب الدماغ
التقدير المتصرف في المصير » .

٧٩٢ صفحة من القطع الكبير مع ٢١ لوحة على ورق مصقول .

(٢) الحياة والحب ٢٥ قرشاً

كتاب رائع في مسائل الحب والحياة وعرض واقعي
تجريبي للغرائز الجنسية واختلاجات القلوب وسرائر
النفوس مع مباحث طريفة في السعادة والعظمة والعزلة .

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

ظهر حديثاً

لإمام الاجتماع الدكتور غوستاف لوبون

ترجمة الكاتب العالم الأستاذ

عادل زعيتر

روح الجماعات

بحث في مشاعر الجماعات وأخلاقها وأفكارها
ومعتقداتها وزعمائها ، وقد صرح كثير من أقطاب
السياسة بما لهذا الكتاب من خطورة بالغة وعنه قال
موسوليني « لا يحصى عدد المرات التي طالعت فيها كتاب
روح الجماعات وكثيراً ما كنت أرجع إليه . . » .

السنن النفسية لتطور الأمم

بحث في صفات الشعوب وتكوينها وتغير أخلاقها ،
وفي تأثير الديانات في الحضارات ، وفي شأن العضاء في
تاريخ الأمم وقد كان رئيس جمهورية الولايات
المتحدة . روزفلت يستصحب هذا الكتاب في حله
وترحاله ويستلهمه في سياسته .

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

أفكارنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب في جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس .

الكتب التي ظهرت :

- ١ عمرون شاه تأليف
 - ٢ مملكة السحر للكاتب الفرنسى شارل بيرو
 - ٣ كريم الدين البغدادى تأليف
 - ٤ آلة الزمان عن الكاتب الإنجليزى ه.ج. ويلز
 - ٥ الأمير والفقير عن الكاتب الأمريكى مارك كوين
 - ٦ كتاب الأدغال للكاتب الإنجليزى رديارد كبلنج
- ثمان الكتاب ١٠ قروش
- ٧ بينوكيو عن الكاتب الإيطالى شارل كولودى

١٥ قرشاً

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

ظهرت حديثاً في طبعة جديدة أنيقة

القصص المدرسية

تأليف الأساتذة

محمد سعيد العريان وأمين دويدار ومحمود زهران

الحظ الجميل أصحاب الكهف

النهر الذهبي الزعيم الصغير

الطيور البيضاء الصياد التائه

ساقية العفاريات مدمس اكسفورد

عروس البغاء أميرة الواحة

سميحة ومديحة تاجر دمشق

معمل الذهب

ثمان القصص ٥ قروش

بأقي كآب هذه المجموعة آحت الطبع

ملآزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

روضۃ الطفل



- ١ أرنبو والكنز
- ٢ كنتك المدهش
- ٣ عيد ميلاد فلة
- ٤ فرفر والجرس
- ٥ ذيل الفأر
- ٦ البطة السوداء
- ٧ انتصار فيروزة
- ٨ حسن والذئب



أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجد
الطفل فيها قصصاً مفيدة مزينة بالصور
المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

تصدرها
دار المعارف بمصر



بمعاونة السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب



دار المعارف بمصر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

تقدم إلى القارئ من مختلف مراحل حياته ومتباين
درجات ثقافته كل ما يحتاج إليه في تكوين مكتبة
عربية في منزله لتساعده على الاستزادة من الثقافة
والطموح إلى حياة عقلية راقية .

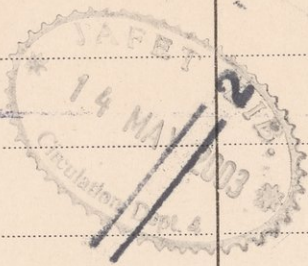
المحل الرئيسي : ٥ شارع مسيرو بالقاهرة تليفون ٤٩٨٦٨
فرع الفجالة : ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة تليفون ٤٩٨٦٦
فرع الإسكندرية : ٢ ميدان محمد علي بالإسكندرية تليفون ٢٣٥٨٨

1900/28.3

DATE DUE

JAFET LIB.

~~30 NOV 1978~~



970.1:W12hA:c.1

وافى، على عبد الواحد

الهنود الحمر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01060385

970.1

W12hA

1
A